دكتور محمود محمد الحويرى

ساحل شرق إفريقية

من فجر الإسلام حتى الغزو البرتغالى



دار المعارف



ساحل شرق إفريقية
منذ فجر الإسلام حتى الغزو البرتغالى

دكتور محمود محمد الحويرى
أستاذ تاريخ العصور الوسطى المساعد
كلية الآداب بسوهاج — جامعة أسيوط



دار المعارف

مقدمة

عرفت منطقة ساحل شرق افريقية منذ حوالى أربعة آلاف سنة ، فقد أرسل المصريون القدماء أساطيلهم التجارية اليها من البحر الأحمر ، بهدف الحصول على العاج والأبنوس والأخشاب العطرية التى كانت من مستلزمات الطقوس الدينية فى مصر القديمة . وكان السبئيون عرب جنوب شبه الجزيرة العربية أول الشعوب العربية التى أتت الى الساحل الشرقى لأفريقية ، بغرض التجارة لا الغزو ، واختلطوا بأهل الساحل وتزوجوا منهم ، حتى أنه فى منتصف الألف سنة التى سبقت ميلاد المسيح عليه السلام ، بدأ الطابع العربى يظهر على طول الساحل .

وبظهور الاسلام فى القرن السابع الميلادى ، أخذت الصلات بين العرب وساحل شرق أفريقية طابعا آخر ، يختلف عن الفترة السابقة للاسلام ، اذ تتابعت الهجرات العربية الى مناطق الساحل التى وصلت الينا بعض أخبارها وأحوالها بواسطة الرحالة ، والروايات المحلية ، ومن آثار المدن القديمة المبعثرة على الشاطىء . وكان لما دونه الرحالة العرب ، وخاصة ابن بطوطة ، أهمية كبيرة فى معرفة أحوال المجتمعات العربية فى مناطق الساحل خلال العصور الوسطى . ووجه الأهمية هنا أن العرب المهاجرين الى الساحل شيدوا مدنا على طوله ، وسيطروا عليها بنفوذهم . وعلى الرغم من أنه لم تقم وحدة سياسية تجمع تلك المدن فى حكومة واحدة ، الا أنه كان للعرب تأثيرات عظيمة فيها لاتزال واضحة الى اليوم . فهم الذين أخذوا بأيدى السكان الأصليين فى مسالك الحضارة ، وأضفوا على حياتهم طابعا ثقافيا واجتماعيا اسلاميا واضحا ، على عكس أهالى المناطق الداخلية الذين ظلوا على وثنيتهم . ونتيجة لامتزاج الدماء العربية بالدماء المحلية الأفريقية ، وتأثير كل منهما فى الأخرى ، ظهر مجتمع جديد عرف بالمجتمع السواحيلى ، له مميزاته الثقافية ، من أبرز مظاهرها المواءمة بين الاسلام والتقاليد المحلية التى لا تتعارض مع أصول

الاسلام . كما أنه كان من تأثير ازدهار التجارة فى مدن الساحل ، أن عم الرخاء سكانها ، وارتفعت مستويات حياتهم .

ومهما يكن من أمر ، فقد عاشت مدن ساحل شرق أفريقية تزاول نشاطها التجارى ، وتساهم فى نشر الاسلام والثقافة العربية ، طوال العصور الوسطى ، الى أن دهمها الغزو البرتغالى الصليبى فى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى ، فغير معالم تاريخها تماما .

وقد بدأت الكتاب فى الفصل الأول ببحث استقرار العرب والمسلمين فى ساحل شرق أفريقية ، موضحا العوامل الجغرافية التى لعبت دورا هامـــا فى توطيد صلات العرب بالساحل قبل ظهور الاسلام وبعده . ويأتى فى مقدمة تلك العوامل قرب موضع شبه الجزيرة العربية من الساحل ، فى الوقت الذى ساعدت الرياح الموسمية التى تهب على منطقة المحيط الهندى على تسهيل حركة الملاحة بين منطقة الخليج العربية والساحل . ثم تناولت الهجرات الأولى التى وصلت الى الساحل بعد ظهور الاسلام ، وربطت بينها وبين الوضع العام فى العـــالم الاسلامى لاسيما فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى).

وفى الفصل الثانى ألقيت الضوء على انتشار الاسلام والثقافة العربية الاسلامية فى ساحل شرق أفريقية . ولا شك أن الاسلام وصل الى الساحل فى ركاب الهجرات العربية القادمة من جنوب شبه الجزيرة العربية ومنطقة الخليج العربى . وفى هذا الفصل تعرضت لآراء بعض الباحثين التى تقلل من شأن دور العرب فى هذه المنطقة ، والتركيز فى كتاباتهم على تأثير الحياة الشيرازية فى الساحل . كما تناولت المذاهب الاسلامية فى الساحل ، اذ كان من شأن الروابط المتينة بين مدن الساحل والعالم الاسلامى ، أن تطبع تلك المدن بمعالم تعكس الصورة المذهبية التى كان عليها المسلمون .

أما الفصل الثالث ، فقد تتبعت فيه بالشرح والتحليل مراحل الغزو البرتغالى الصليبى لمدن الساحل . وفى هذا الصـــدد يعتبر عهـــد يوحنـــا الأول ملك البرتغال (١٣٨٣ ـ ١٤٣٣) نقطة تحول هامة فى تاريخ البرتغال ، ففى عهده بدأت البرتغال تعنى بحركة الكشوف الجغرافية ، وهى الحركة التى عادت عليها بالثروة الطائلة والشهرة الواسعة . على أن حركة الكشوف الجغرافية البرتغالية

فى حقيقتها كانت وسيلة لغاية أبعد منها ، وهى احياء الحروب الصليبية ٠ وبعبارة أخرى تطورت فكرة الحروب الصليبية فى القرن الخامس عشر ، فبدلا من مواجهة المسلمين فى معارك دامية أثبتت الحروب الصليبية فشلها الذريع فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر اذا بها فى القرن الخامس عشر تتجه الى توسيع نطاق تلك الحروب ، وذلك بالعمل على تطويق المسلمين من الأمام والخلف ٠ وتنفيذا لتلك السياسة أخذ البرتغاليون يرسلون الحملات تباعا الى الساحل ، ويكيلون الضربات تلو الأخرى بمدنه ، حتى نجحوا فى السيطرة عليها فى أوائل القرن السادس عشر ٠

وفى الفصل الرابع والأخير ، تناولت أحوال المدن أو المراكز العربية الاسلامية فى الساحل منذ فجر الاسلام وحتى انتهاء القرن الخامس عشر ، ومن الملاحظ أن تلك المدن ازدهرت بالثروة والرخاء ، بسبب اشتغال سكانها بالتجارة ، وزاد الاسلام رسوخا فى أنحائها ٠ وعندما غزا البرتغاليون الساحل أدهشهم مارأوه فى تلك المدن من رقى وحضارة ، اذ كانت الفكرة السائدة عندهم هى أن الأقوام التى تعيش فى ساحل شرق أفريقية ، أقرب شبها الى الأقوام البدائية التى صادفوها فى الساحل الغربى من القارة الافريقية ٠ لذلك عندما وصل فاسكودى جاما الى ساحل موزمبيق أصيب بدهشة عندما وقع نظره على المدينة بطرقاتها المستقيمة ، وبيوتها الحجرية ذات الطوابق المتعددة ٠

وأخيرا أختتم مقدمتى بالقول ان هذا الكتاب محاولة متواضعة لالقاء الضوء على الجوانب السياسية والحضارية التى عاشها ساحل شرق أفريقية فى العصور الوسطى ٠ وفى الحديث الشريف : من اجتهد وأصاب له أجران ، ومن اجتهد وأخطأ له أجر ٠ والله أسأل أن أكون قد وفقت فيما أصبو اليه ،

والله ولى التوفيق ٠

القاهرة فى ٢٠ ربيع الآخر ١٤٠٥ هـ

أول يناير ١٩٨٦م ٠

محمود محمد الحويرى

الفصـــل الأول

استقرار العرب والمسلمين فى ساحل شرق أفريقية

- السكان الأصليون •
- الوصول المبكر الى ساحل شرق أفريقية •
- استقرار العرب فى ساحل شرق أفريقية •
- المهاجرون الآسيويون •

يقصد بتعبير منطقة شرق افريقية دول اثيوبيا والصومال وكينيا وأوغندة وتنزانيا ، فضلا عن راوندى وبوروندى ، وهى مساحة هائلة تبلغ حوالى ٨ر١ مليون كيلو متر مربع ، وتمتد من دائرة عرض ٤ درجة شمالا حتى دائرة عرض ١٠ درجة جنوبا ، كما تمتد بين خطى الطول ٣٠ و ٤٠ درجة شرقا ، أى لمسافة ١١٢٠ كيلو متر من الشرق الى الغرب وسميت المنطقة شرق افريقية ، لأن الطابع الذى يميزها تستمده من موقعها الجغرافى فى شرق القـارة ، فالاخدود الغربى يكاد يكون فاصلا بين هضبة شرق افريقية ومنخفض زائيرى (١) • ومن الملاحظ أن العوامل الطبيعية والثقافية جعلت من الأراضى الساحلية عالما منفصلا عن بقية شرق افريقية ، فالهضاب الممتدة من الشمال الى الجنوب كانت بمثابـة حاجز ضخم خلال فترة طويلة من التاريخ ، عزلت المناطق الساحلية ، وجعلت الاتصال بالداخل أمرا صعبا نسبيا ، ونتيجة لذلك فرضت عليها أن تتجه الى الشرق ، نحو عالم شبه الجزيرة العربية والمحيط الهندى ، وأن ترتبط بهـذا العالم عن طريق البحر عبر مضيق باب المندب ، أو عن طريق المسالك الملاحية فى المحيط الهندى • ومن أبرز العوامل الجغرافية الأخرى ، أن المطر بوجه عام يمثل أعظم خاصية طبيعية فى شرق افريقية ، فعلى الساحل ينهمر المطر بكميات وفيرة ، بينما تقل كمية سقوطه فى الداخل ، الأمر الذى يؤكد عزل الساحل عن الداخـــل (٢) •

ويهمنا بصفة خاصة منطقة ساحل شرق افريقية المطلة على المحيط الهندى الممتدة من مقديشيو فى الشمال الى سفالة فى الجنوب • ويحملنا هذا على استبعاد اقليم إثيوبيا وقرن افريقية الشرقى (الصومال) ، اذ سكنت هذا الاقليم منذ عصور موغلة فى القدم عناصر سكانية ، هى جزء من المجموعة الحامية التى يطلق عليها « الحاميون الشرقيون » ، وان كان قد تأثر قليلا بالعناصر الزنجية التى وفدت عليه من الجنوب • ومنطقة الساحل هذه التى تهمنا ، هى التى كانت حلقة

---

(١) ابراهيم رزقانة : العائلة البشرية ، ص ٢٩٥ ، عبد الغنى سعودى : افريقية ، ص ٢٩٤ ـ ٢٩٥ •

(٢) Morgan, East Africa, p. 163;

حسن أحمد محمود : الاسلام والثقافة العربية فى أفريقية ، ص ٣٧٧

الوصل بين داخل هضبة البحيرات العظمى والعالم الخارجى • وبمعنى آخر هى التى أوصلت الروابط التجارية والثقافية ، التى ترجع فى غالبية أصولها الى الحضارة الاسلامية ، الى داخل الهضبة على الأقل • ومما تجدر الاشارة اليه أن الجزر القريبة من الساحل تدخل فى نطاق تلك المنطقة الساحلية ، كما أن جزيرة مدغشقر رغم أن المسافة بينها وبين ساحل القارة لا تزيد عن ٤٠٠ كيلو متر ، وتمثل جزءا منفصلا عن هضبة شرق افريقية ، الا أنها من الناحية الحضارية لا تربطها الا أدنى الروابط بتلك القارة ، وتدين بحضارتها الى الشرق ، الى أهل الملايو وشبه الجزيرة العربية ، وغيرهما من البلاد الآسيوية(٣)

السكان الأصليون :

تعيش على أرض افريقية ثلاث مجموعات من الأجناس البشرية ، وهى : الحاميون ، والزنوج ، والبانتو ، وان كانت هناك مجموعة أخرى من جنس آخر اسمه البوشمن ، تعيش فى مناطق منعزلة من افريقية الجنوبية ، فى طريقها الى الانقراض (٤) • ومن المعروف أن الحاميين هم البيض ، أما اصطلاح البانتو فانه لا يشير فى حقيقة الأمر الى جنس ، بل هو اصطلاح لغوى يستخدم باستمرار للدلالة على معظم الافريقيين ، الذين وان تميزوا بسواد البشرة ، فانهم ليسوا دائما فى سواد الزنوج الخلص المستقرين فى أجزاء كثيرة من القارة •

وتنتشر شعوب البانتو فى مساحة واسعة من القارة تقدر بثلثيها ، ويمكن تقسيمها الى ثلاثة أقسام : البانتو الشرقيون ، والبانتو الغربيون ، والبانتو الجنوبيون • ومن الملاحظ أن القسم الجنوبى من البانتو هو وحده الذى يطل على المحيطين الأطلسى والهندى ، كما أن له شواطئه الجنوبية التى تصل بين المحيطين ، وتمر منها السفن التى تدور حول رأس الرجاء الصالح ، أما القسم الشرقى فيطل على المحيط الهندى ، والغربى يطل على المحيط الأطلسى ، ويفصل بين الاثنين الخط الأخدودى المار ببحيرات ادوارد وكيفو وتنجانيقا ، ومن الطرف الجنوبى لبحيرة تنجانيقا يتجه جنوبا حتى نهر زمبيزى (٥) • وقد تأثر البانتو

---

(٣) Fitzgerald, Africa, pp. 214 — 215.

(٤) جون جنتر : داخل أفريقيا ، حـ١ ص ١٢ ـ ١٣ •

(٥) محمد عوض محمد : الشعوب والسلالات الافريقية ، ص ٧٦ •

الشرقيون فى كل من أوغندة وتنزانيا وملاوى وزامبيا والقسم الشمالى من موزمبيق ، بالبانتو الغربيون ، بسبب نـرب الأخيرين من الســاحل الشرقى والسافانا الشمالية ، وأهم عناصر البانتو الغربيون جمـاعات الباجنـــده والبانيورو وباتورو وباسوجا ، التى تسكن الشمال المطل على المحيط الهندى • وتتميز تلك الجماعات بلغتها البانتوية المتأثرة تأثرا شديدا باللغة العربية بعد أن اختلطت بالهجرات العربية ، حيث نجد كثيرا من ألفاظ وكلمات هذه اللغـة منتشرة عند تلك الجماعات (٦) • وفضلا عن ذلك نلمس بعض وجود الموانع التى وجدت فى غرب افريقية ، حيث عاقت الغابات الاستوائية الزنوج الأصليين المنتشرين فى الأقسام الساحلية من غرب افريقية ، اختلاطهم بأهل الشمال من الحاميين (٧) • ومما يجدر ذكره أن منطقة الصومال المعروفة باسم « قـــرن افريقية » لا يعتبر أهلها من الزنج ، مهما بلغ لون بشرتهم من سواد ، اذ من المعروف أنهم من أصل حامى قديم (٨) ، دخل شرق افريقيـة من الأجـــزاء الجنوبية لشبه الجزيرة العربية ، منذ زمن بعيد لا تعيه ذاكرة التاريخ •

واذا كانت السلالات الزنجية فى الجانب الغربى من القارة الافريقية تتميز بتعدد اللغات ، الى درجة كبيرة بحيث تتجاوز الخمسمائة على أقل تقدير ، فان البانتو بخلاف ذلك لهم « أسرة لغوية واحدة » • ولكن هذا لا يعنى أن المتكلم فى الجزء الجنوبى من القارة ، يستطيع أن يفهم ما يقوله واحد من سكان الجانب الشرقى أو الغربى ، بل معناه أن اللغات التى يتداولها الناس فى جميع الأوطان البانتوية ، متشابهة تشابها كبيرا ، كما تتشابه مثلا لغات الفرنسيين والأسبان والايطاليين ، بوصفها فروعا من اللغة اللاتينية (٩) • ومن أهـــم خصائص هذه اللغة أنها مقطعية ، أى أن المعنى يكمل أو يغير باضافة مقطع أو استبدال مقطع بآخر ، فعلى سبيل المثال نذكر أن شعب جنده يسمى « موجنده» والوطن الذى يعيش فيه الجنده يسمى « بوجنده » ، واللسان الذى يتكلمون به

---

(٦) أحمد نجم الدين : أفريقيا جنوب الصحراء ، ص ٧٧ •

(٧) نفس المرجع ، ص ٦٩ •

(٨) جون جنتر : المرجع السابق ، حـ٢ ص ١٣٤؛ •

Fitzgerald, op. cit., p. 465

(٩) محمد عوض محمد : المرجع السابق ، ص ٧١ •

يسمى « لوجنده » • وهذه المقاطع قد تختلف قليلا فى الجنوب عن الشمال الشرقى أو الغربى ، بحيث يستعمل بدلا من المقطع « بـا » مقطع آخر مثل « وا » أو « آما » كما هى الحال فى آمازولو ، غير أن المبدأ واحد ، وهو النظام المقطعى الذى تمتاز به لغة البانتو (١٠) • ومعظم لغات البانتو لها نفس الخصائص ، وأصل الكلمات واحد أو متقارب فى كل أرجاء المنطقة الواقعة بين كينيا ومدينة الكاب • فيسمى الرجل أومنتو عند الزواو ، وأومانتو عند الدجاندا ، ومتو عند السواحيليين ، والجمع للرجال أبانتو ، هى نفسها فى كثير من اللغات ، ومنها اشتقت كلمة « بانتو » ذاتها بمعنى كائنات بشرية (الشعب) (١١) • وكيفما كان الأمر ، فان تقارب لغات البانتو يعتبر قوة موحدة هامة ، فى حين أن اللغات الزنجية فى الجانب الآخر من افريقية تختلف تماما عن لغات البانتو ، كما تختلف اللغة الانجليزية مثلا عن اليابانية ، حتى يمكن أن تكون هناك لغة مخالفة تماما عند كل خمسين ميلا •

الوصول المبكر الى ساحل شرق افريقية :

عرفت منطقة ساحل شرق افريقية منذ أربعة آلاف سنة ، لوجودها فى نطاق الحضارات القديمة • فقد أرسل القدماء المصريون سفنهم وأساطيلهم التجارية اليها من البحر الأحمر ، بهدف الحصول على البهارات والمرو والعاج والأبنوس والأخشاب العطرية التى كانت من مستلزمات الطقوس الدينية فى مصر القديمة ، وقد سجل التاريخ وصول تلك الأساطيل حتى أقاصى بلاد بونت Punt جنوبا ، ويشمل اسم بونت منطقة واسعة من الأراضى المطلة على المحيط الهندى من جنوب شبه الجزيرة العربية والخليج العربى ، ومدخل مضيق باب المندب ، شرق افريقية حتى سفالة فى موزمبيق (١٢) • وهنا يرى البعض أنه من الخطأ الجسيم تقييد موقع بلاد بونت بمنطقة محددة بعينها فى الوقت الذى يقتضى التعميم ضرورة المرونة فى مدلول كلمة بونت بحيث يجب

---

(١٠) المرجع السابق ، ص ٧٦ •

(١١) Fitzgerald, op. cit., p. 119;

جون جنتر : المرجع السابق ، حـ٢ ص ١٥٣ •

(١٢) جوليان : تاريخ أفريقيا ، ص ٧٧ •

أن تشمل منطقة أو مناطق تضيق مساحتها او تتسع ، وتستند هذه المرونة الى حقيقة واضحة يمكن أن نتلمسها فى تاريخ مصر القديمة ، وهى أن الرحلات المصرية الى هذه المنطقة رغم ازدياد الخبرة فى ممارسة الملاحة بالبحر الأحمر كلما حصلت على سلع من جنوب البحر الأحمر ، تعبر عن ذلك بأن وجهتها كانت الى بونت (١٣) ٠

وتؤكد الآثار المصرية أن السفن المصرية قد وصلت الى ساحل شرق افريقية منذ عهد الأسرة الخامسة (٢٥٦٠ ـ ٢٤٢٠ ق٠م) فى عهد ساحورع ، ثم كثرت الرحلات التجارية المصرية الى الساحل فى عهد الأسرة الحادية عشر (٢١٤٣ ـ ١٩٩١ ق٠م) ، فيذكر أحد رؤساء البعثات فى هذا العصر واسمه حننو أنه سافر اليه احدى عشرة مرة ، ثم هناك أشهر ما سجل على الآثار المصرية ، ونعنى بها مناظر الرحلة التى أرسلتها الملكة حتشبسوت (١٤٩٠ ـ ١٣٦٩ق٠م) الى تلك البلاد ، والتى سجلت على جدران معبدها بالدير البحرى (١٤) ٠ وكذلك يذكر المؤرخ هيرودوت (٤٨٤ ـ ٤٢٨ ق٠م) أن رمسيس الثانى (سيزوستريس) قد أوفد حملة بحرية الى ساحل شرق افريقية حوالى سنة ١٤٠٠ ق٠م ، من المحتمل أنها وصلت الى مدغشقر ، وتظهر قمة الازدهار البحرى فى مصر القديمة ، عندما أرسل نيكاو (٦٣٠ ـ ٥٢٧ ق٠م) من الأسرة السادسة والعشرين ، أسطولا بقيادة فينيقيين ، أبحر من خليج السويس ، حاملا معه مؤنا كافية ، ثم اتجه جنوبا حتى وصل الى منطقة كانت الشمس فى أوجها من على يمينهم ، ويعنى هذا أن الفينيقيين داروا حول رأس الرجاء الصالح ، وأبحروا عائدين شمالا فى المحيط الأطلسى ، وعبروا مضيق جبل طارق الى البحر المتوسط ، حتى وصلوا مصر ثانية ، وقد استغرقت هذه الرحلة ثلاث سنوات (١٥) ٠ ومن الآثار المترتبة

---

(١٣) شريف محمد شريف : تطور الفكر الجغرافى ، الجزء الأول ، العصور القديمة ، ص ٥٧ ـ ٦١ ٠

(١٤) محمد محمد امين : تطور العلاقات العربية الافريقية فى العصور الوسطى ، ص ٤٥ ٠

(١٥) Ingrams, Zangibar, its history and its people, pp. 47 — 48.

على اتصال المصريين القدماء بساحل شرق افريقية ، أن تسربت كلمات مصرية الى لغة شرق افريقية ، ويؤكد ذلك أن الكلمة المصرية التى تعنى أسود وهى نحسى Nehesi ، قد اشتقت عنها الكلمة السواحيلية Nyeusi (١٦) .

ومن المحتمل أن السفن الاغريقية كانت أول من أبحر جنوبا حول رأس جاردافوى من أجل العاج فى عهد بطليموس الثالث (٢٤٧ - ٢٢١ ق.م) ، وفى عام ٤٥ م لاحظ بحار رومانى يدعى هيبالوس انتظام الرياح الموسمية ، وساعد ذلك على معرفة الساحل الشرقى الافريقى أو الجزء الغربى من المحيط الهندى ، ووضعت فيه كتب بالاغريقية واللاتينية (١٧) . ويعتبر كتاب « دليل الملاحة فى البحر الأريثرى » - أى الجزء الغربى من المحيط الهندى The periplus of the Erythrean Sea أول وأهم وثيقة أصلية ، تناولت وصفا للمدن والمجتمعات التجارية القائمة على ساحل شرق افريقية . وقد ظهر هذا الكتاب فى الاسكندرية لبحار اغريقى غير معروف فى أواخر القرن الأول الميلادى أو بداية القرن الثانى ، وان كان من المرجح أنه كتب فى عام ١١٠م . وتؤكد المعلومات التى تضمنها هذا الكتاب ولازالت باقية حتى الوقت الحاضر، أن مؤلفه لم ينقل عن غيره ، بل سجل مارآه معتمدا على تجربته الشخصية . ويذكر المؤلف أن السفن الاغريقية - الرومانية كانت تجوب مياه المحيط الهندى الغربية لتبادل الحاصلات والبضائع . وأن المدن التجارية لم تكن خاضعة لسلطة مركزية واحدة ، وانما بكل مدينة حاكمها الذى يدير شئونها . وكان من المألوف رؤية التجار والملاحين العرب فى مناطق الساحل الشرقى لافريقية حتى رهابتا Rhapta على ساحل تنجانيقا تقريبا (بالقرب من زنجبار) ، التى كانت خاضعة لحكم أمير معافر فى اليمن ، وقد استقر التجار العرب بين سكان رهابتا الأفارقة ، واختلطوا بهم ، وتحدثوا لغتهم (١٨) . ويذكر المؤلف أيضا أن العرب كانوا يأتون الى أسواق منطقة الساحل الشرقى لافريقية بالحراب والفؤوس والخارز ومختلف أنواع الزجاج ، فضلا عن كميات

---

(١٦) Ibid., p. 50.

(١٧) Marsh & Kingsnorth, A Hist. of East Africa, P. 17, Ingrams, op. cit., p. 60.

(١٨) Oliver & Mathew (ed.) Hist. of East Africa, Vol 1.,

قليلة من القمح لتأمين رغبة السكان الأصليين ، فى الوقت الذى كـانوا يجلبون من الساحل كميات ضخمة من العاج ووحيد القرن وعظام ظهور السلاحف وزيت النخيـــل (١٩) ٠

ومنذ عهد مؤلف هذا الدليل حتى القرن العاشر الميلادى كانت « العصور المظلمة » فى تاريخ الساحل الشرقىلافريقية ، وبمعنى آخر ، لا تتوفر لدينـا أية معلومات جديدة ذات أهمية عن هذا الساحل الا فى كتابات مؤرخى القرن العاشر ، صحيح أن الجغرافى بطليموس فى القرن الرابـع الميـلادى كتب عن الساحل ، غير أنه لم يضف الا القليل الى ما أورده مؤلف الدليل ، كما أن الرحلة التى قام بها التاجر الاغريقى كوسماس أنديكوبلوستس لم تلق الا قليلا من الضوء على الساحل (٢٠) ٠ ومما يذكر أن القرن الرابع الميلادى شهد ظهور قوة بحرية هائلة ، تمثلت فى الساسانيين الفرس ٠ اذ شجعوا الملاحـة الفارسية التى لم يقدر لها الازدهار من قبل ، ووصلت سفنهم الى ساحل شرق افريقية ، ويدل على ذلك أن الملك الساسانى نرسى (٢٩٢ ــ ٣٠٢ م) عقد صلات مع « زند أفريك شاه » أى ملك شعب الزنج فى شرق الصومال (٢١) ٠ وفى عهد الملك بهرام الخامس (٤٢٠ ــ ٤٣٩ م) ، سيطرت فارس على طرق التجارة البحرية فى النصف الغربى من المحيط الهندى ، وظل نفوذها قائمـا حتى أوائل القرن السابع الميلادى ، عندما سقطت الدولة الفارسية على أيدى الفتوحات العربية ٠ (٢٢) وفضلا عن ذلك ، تؤكد المصادر الصينية وجود تجارة بحرية بين الصين وكل من الهند وشرق افريقية وسوريا فى القرن الخامس الميلادى ، ويبدو أن السفن الصينية كانت تلتقى فى سيلان بالسفن القادمة من غرب المحيط الهندى على اختلاف جنسياتها (٢٣) ٠

---

pp. 94 — 95; Marsh & Kingsnorth, op. cit., pp. 17 — 18.

(١٩) Marsh & Kingsnorth, op. cit, p. 18.

(٢٠) Beachey, The Slave Trade of Eastern Africa, P.3.

(٢١) حورانى : العرب والملاحة فى المحيط الهندى ، ص ٩١ ــ ٩٢ ٠

(٢٢) Oliver & Mathew, op. cit., p. 98.

(٢٣) حورانى : المرجع السابق ، ص ٩٢ ٠

استقرار العرب فى ساحل شرق افريقية :

كان السبئيون عرب جنوب شبه الجزيرة العربية أول الشعوب العربية التى أتت الى الساحل الشرقى لافريقية بغرض التجارة لا للغزو ، وعلى الرغم من أنهم وفدوا فى اعداد قليلة ، الا أنهم داوموا فى تجارتهم ، واختلطوا بأهل الساحل وتزوجوا منهم ، وأقاموا محطات تجارية ، وفى منتصف الألف سنة التى سبقت ميلاد المسيح عليه السلام ، بدأ الطابع العربى يظهر على طول الساحل ، ولم يفقد هذا الطابع شخصيته المميزة،اذ كان يدعم بالوافدين من جزيرة العرب والخليج العربى (٢٤) · وعلى أثر انهيار سد مأرب سنة ١٢٠ م ، خرجت هجرات عربية من اليمن الى أنحاء مختلفة داخل شبه الجزيرة العربية وخارجها ، ومن ثم استقر جزء منها فى عزانيا (ساحل شرق افريقية) ، حيث المعرفة السابقة بالساحل (٢٥) ·

وكان من الطبيعى أن يؤدى ارتياد التجار العرب مناطق ساحل شرق افريقية قبل ظهور الاسلام ، الى استقرار جماعات منهم فى تلك المناطق ، لتسهيل عملياتها التجارية مع السكان الوطنيين · وتأسيسا على ذلك نشأت بعض المستوطنات العربية فى أنحاء متفرقة ، لم تأخذ طابعا سياسيا ، وبعبارة أخرى لم يكن لها أى نفوذ على سكان الساحل · ولاشك أن أولئك التجار لقوا أحسن استقبال من السكان الأصليين ، فطابت اقامتهم معهم ، وانعقدت بينهم صلات مودة وحسن جوار · ويدل على ذلك مخطوطة لمؤلف مجهول بعنوان « تاريخ الزنج » أو « كتاب الزنوج » ، ليس لدينا الدليل على أنها كتبت فى أوائل العصور الوسطى ، قام بتحقيقها الأستاذ تشيرولى Cerulli ونشرها فى مجلة خاصة بالصومال فى سنة ١٩٥٧ م · وتروى هذه المخطوطة أن المهاجرين العرب من جنوب شبه الجزيرة العربية ، قد أقاموا عددا من

---

(٢٤) باسيل دافيدسون : أفريقية تكتشف من جديد ، ص ٨٢ — ٨٣ ·

(٢٥) Ingrams, op. cit., pp. 56 — 58, Pearce, Zanzibar the island Metropolis of Eastern Africa, p. 36.

(٢٦) مجهول المؤلف : تاريخ الزنج ، مجلة نهضة إفريقية ، العدد ١٢ ، ١٣ لسنة ١٩٥٨ ، ص ٥٧ ٦٠ ·

Oliver & Mathew, op. cit., pp. 102 — 102.

المستوطنات ــ أو المخلات ــ على الساحل ، في المنطقة الممتدة من مقديشيو شمالا حتى كلوة جنوبا ، وزادت الروابط بينهم وبين السكان الأصليين ، الى أن ظهر الاسلام في القرن السابع الميلادى ، فاهتدوا اليه على عهد الخليفة عمر بن الخطـــاب (٢٦) ٠

ولا شك أن العوامل الجغرافية لعبت دورا بالغ الأهمية في اتساع وتوطيد صلات بلاد العرب بساحل شرق أفريقية قبل ظهور الاسلام وبعده ٠ ويأتى في مقدمة تلك العوامل قرب موضع شبه الجزيرة العربية من هذا الساحل ٠ كما أن الكثير من حاصلات العراق وفارس والهند والشرق الأقصى المتجهة الى عالم البحر الأبيض المتوسط ، كانت تحمل بالبحر من موانى الخليج العربى وغرب الهند الى الساحل الجنوبى لشبه الجزيرة العربية ، ثم بعد ذلك الى السويس عبر البحر الأحمر ٠ ولما كانت موانى شبه الجزيرة تقع في منتصف الطريق من تلك الرحلة البحرية الطويلة ، فقد ترتب على ذلك أن صارت مركزا عظيما emporium لتبادل الحاصلات العالمية الشرقية والغربية (٢٧) ٠ هذا في الوقت الذى ساهم ساحل شرق أفريقية في نشاط هذه التجارة العالمية بسلعه التى لشتهر بها ، وأهمها الذهب والعاج والعبيد ٠ وفضلا عن ذلك ، ساعدت الرياح الموسمية التى تهب على منطقة المحيط الهندى على تسهيل الحركة الملاحية بين منطقة الخليج العربى وساحل شرق أفريقية ، اذ مكنت تلك الرياح السفن الشراعية المعروفة بالداوات (٢٧) dhows من القيام برحلتين منتظمتين في السنة ، الأولى في فصل الخريف (ديسمبر) عندما تدفع الرياح الموسمية الشمالية الشرقية السفن في اتجاه جنوبى غربى ، فتخرج من خليج عمان الى المحيط الهندى ، ثم تسير بمحاذاة الساحل الافريقى الذى

---

(٢٧) Hollingsworth, the Asians of East Africa, p. 9.

(٢٨) سفينة الداو أو الداوة ، ذات شراع واحد حمولتها مائتا طن ، وتستعمل في البحر العربى ، كذلك تطلق هذه التسمية خاصة على السفينة التى كانت تستخدم بسواحل شرقى أفريقية في تجارة العبيد ، وتعرف بهذا الاسم أيضا في سواحل الهند الغربية ، وهذه الأخيرة تتميز بأشرعتها المثلثة الشكل ٠ وقد استخدمت الداوات في نقل السلع والبضائع والمسافرين ٠ أنظر : درويش النخيلى : السفن الاسلامية على حروف المعجم ، ص ٤٥ ٠

ينحنى فى اتجاه جنوبى غربى ، وبعد شهور قلائل فى فصل الربيع (مارس) تبدأ تلك السفن رحلة العودة الى مواطنها الأصلية فى شبه الجزيرة ، تدفعها الرياح الموسمية الجنوبية الغربية ، التى تهب على المحيط الهندى فى اتجاه شمالى شرقى . وقد مكنت تلك الرياح الملاحين العرب من الابحار فى أقصر الطرق البحرية العميقة ، واستطاع الهنود الافادة منها ، فأقاموا خطا ملاحيا منتظما يصل بين الشواطىء الغربية للهند وساحل شرق افريقية ، بيد أن نشاطهم كان تجاريا فقط (٢٩) . ولعل الجدير بالذكر هنا أن المستوطنات المبكرة التى أقامها العرب على طول الساحل ، نشأت أول أمرها فوق الجزر التى يفصلها عن الساحل مساحة ضيقة من المياه ، حتى توفر بعض الأمن لمجتمع مستقر ، يستطيع الدفاع عن وجوده اذا أراد السكان الأصليون المنتشرون فى الداخل التعرض له بسوء ، ويؤكد ذلك أن كثيرا من المدن الهامة ، مثل ماندا ولامو وممبسة وكلوة ، شيدت فوق الجزر (٣٠) . وعلى الرغم من ارتفاع درجة الحرارة ارتفاعا كبيرا على ساحل شرق افريقية ، الا أن العرب لم يتأثروا بشدتها ، لأنهم عادة يأتون من مناطق أشد حرارة ، ولذلك لم يستطع الأوربيون عندما وصلوا الى هذا الساحل الاستقرار فى أراضيه ، فيما عدا المناطق البعيدة عن خط الاستواء مثل موزمبيق ، أو الأماكن الداخلية مثل جبال كينيا وتنجانيقا العالية (٣١) . ويرى البعض أن المستقرين العرب والفرس الأوائل قد تعرضوا لمؤثرات المناخ الافريقى ولكنهم بمرور الزمن ألفوا هذا المناخ واكتسبوا مناعة ازدادت فى الأجيال التالية نتيجة التزاوج بين الوافدين والساكن الأصليين (٣٢) .

وبظهور الاسلام أخذت الصلات بين العرب وساحل شرق افريقية طابعا آخر ، يختلف عن الفترة السابقة للاسلام . اذ أخذت الهجرات التى وصلت

---

(٢٩) Hollingsworth, op. cit., p. 9; Marsh & Kingsnorth, p. 17;
صلاح العقاد ، جمال زكريا قاسم : زنجبار ، ص ٤ ـ ٥ .

(٣٠) Morgan, op. cit., p. 166.

(٣١) صلاح العقاد ، جمال زكريا : زنجبار ، ص ٥ .

(٣٢) pearce, op. cit., p.

الينا بعض أخبارها تفد الى الساحل ، بغية الاستقرار الدائم • ولا شك أن أحوال الدولة العربية الاسلامية ، خاصة بعد أن انقسم المسلمون الى شيع وفرق ، دفعت بعض الجماعات العربية والفارسية الى الفرار من مواطنهم الى الساحل الشرقى لأفريقية الذى جعلته التجارة مألوفا لديهم ، بعيدا عن متناول أعدائهم ومنافسيهم (٣٣) • ويمكن القول أن ظهور الانقسام فى العالم الاسلامى الى سنة وشيعة ، وما تبع ذلك من حدوث القلاقل والمنازعات خاصة فى الجزء الغربى من آسيا ، قد أدى بالعديد من المسلمين الى البحث عن الأمن والسلام فى أوطان بعيدة عن مسرح المنازعات ، وكان أبرز تلك الأوطان ساحل شرق افريقية لسهولة الوصول اليه من ناحية ، ولما كان عليه من ثروات ومحاصيل أغرت الوافدين عليه من آسيا ، مثلما حدث فيما بعد عندما هاجر الأوربيون الى العالم الجديد أو أمريكا من ناحية أخرى (٣٤) •

ويرجح البعض أن أول هجرة الى ساحل شرق افريقية بعد ظهور الاسلام ، ترجع الى عشرين عاما من وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم (٦٣٠ م) ، عندما اندفع العرب فى فتوحاتهم نحو العراق وفارس والشام ومصر ، والتى لم يشترك فيها عرب عمان نتيجة لانعزال اقليمهم ، فاتجهوا الى منطقة شرق افريقية ، التى هيأت العوامل الجغرافية سهولة الاتصال بها (٣٥) • ذلك أن عمان تقع فى الركن الشمالى الشرقى من شبه الجزيرة العربية ، وتمثل نتوءا فى المحيط الهندى ، ونقع الصحراء العربية خلفها ، مما جعل أهلها يتجهون صوب البحر (٣٦) • وفى رواية أن أولى الهجرات العربية الى ساحل شرق افريقية بعد ظهور الاسلام كانت فى عهد الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان (٦٨٥ — ٧٠٥ م) ، وفى هذا الصدد يروى المؤلف المجهول صاحب كتاب « تاريخ الزنج » (٣٧) • أن عبد الملك أرسل جماعة من أهل الشام بزعامة أمير يدعى موسى بن زبير الخثعمى فى عام ٧٥ هـ (٦٩٤ م) ، للاقامة فى

---

(٣٣) Marsh & Kingsnorth, op. cit. p. 21

(٣٤) Pearce, op. cit., p. 38.

(٣٥) صلاح العقاد ، جمال زكريا : زنجبار ، ص ٥ •

(٣٦) Marsh & Kingsnorth, op. cit., p.21

(٣٧) مجلة نهضة أفريقية ، سنة ١٩٥٨ ، ص ٦٠ •

له طائعين من أولهم الى آخرهم » • وتنسب هذه الرواية الى المهاجرين الشوام، مناطق الساحل الشرقى لافريقية ، حيث دعا الى الاسلام ، «وكان أهل البلاد تأسيس مدينة لامو ، فضلا عن أن الرواية المحلية التى تتعلق بتاريخ مدينة بات (بيت) تفيد بأن هؤلاء المهاجرين قد شيدوا على طول الساحل خمسا وثلاثين مدينة فى عام ٧٧ هـ (٦٩٦ م) (٣٨) • على أن عددا كبيرا من المؤرخين لايؤيد ماذهبت اليه الروايات المحلية حول هذه الهجرة،ويذكرون أن أول هجرة جماعية هى التى قام بها فريق من أهل عمان فى القرن السابع الميلادى • وبداية كانت أحوال الدولة العربية الاسلامية مستقرة على عهد الخليفتين أبى بكر الصديق وعمر ابن الخطاب، ثم أتى من بعدهما الخليفتان عثمان وعلى • ولما صار الأمر لمعاوية ابن أبى سفيان ، وقامت الدولة الأموية فى سنة ٤١ هـ (٦٦١م) لـم يكـن لمعاوية أى نفوذ فى عمان ، حتى تولى الخلافة عبد الملك بن مروان ، واستخدم على العراق عامله الحجاج بن يوسف الثقفى • ومما يذكر أن آل الجلنـــدى تمتعوا باستقلال كبير فى عمان فى بداية العصر الأموى ، فكانوا يسيرون أمورها دون الرجوع الى الخلافة فى دمشق ، ومع أن عمان كانت تابعة لأمير العراق ، الا أن المصادر لم تذكر اسم أى وال عليها ، الأمر الذى يدل على أن الخلفاء لم يعينوا أحدا عليها ، وأن آل الجلندى ظلوا يديرون شئونها ، غير أن عدم حدوث منازعات بين الخلافة وعمان يدل أيضا على أن آل الجلندى مع ما كانوا يتمتعون به من نفوذ ، لم يقوموا بأعمال تظهر معارضتهم للخلافة الأموية ، أو خروجهم عليها (٣٩) • غير أنه لمـا اضطربت أحوال الدولة الأموية بعـد وفـاة يزيد ، وقويت شوكة الخوارج فى شرقى شبه الجزيرة العربية ، وسيطر نجدة بن عامر الحنفى من الخوارج على البحرين ، أرسل جيشا الى عمان بقيادة عطية بن الأسود الحنفى ، وكان يحكم عمان آنذاك عباد بن عبد الله بن الجلندى ويعاونه ابناه سعيد وسليمان ، فقتل عباد واستولى عليها ، وبذلك صارت عمان تحت سيطرة الخوارج الذين كانوا من أعنف خصوم الأمويين • ويرجع اهتمـــام

---

(٣٨) Oliver & Mathew, op. cit., p. 102

(٣٩) عبد الرحمن عبد الكريم العانى : عمان فى العصور الاسلامية الأولى ، ودور أهلها فى المنطقة الشرقية من الخليج العربى وفى الملاحة والتجارة الاسلامية، ص ٨٦ ـ ٨٧ •

الخوارج بعمان الى طبيعتها الجبلية وامتداد الصحارى الجرداء فى غربها كما ذكرنا ، مما يؤهلها لأن تكون ملجأ حصينا لهم يلوذون به فى حالة الخطر والهجوم ، فضلا عن أن وقوع عمان على الخليج العربى يعطيها أهمية تجارية وعسكرية • ومما ساعد نجدة بن عامر على الاستيلاء على عمان أحوال الدولة العربية الاسلامية ، فالانقسامات والمشاكل الداخلية فى العراق قد أضعفت من حركة عبد الله بن الزبير ، فى الوقت الذى لم يكن يهم الأمويين الا القضاء على تلك الحركة • غير أن أهل عمان فيما يبدو لم يؤيدوا حكم الخوارج ، وظلوا موالين لآل الجلندى ، فلما عاد عطية الى البحرين ، بعد أن أمضى فى عمان بضعة أشهر ، استطاع سعيد وسليمان بمساندة أهل عمان قتل أبى القاسم نائب عطية فى عمان (٤٠) •

وعلى أية حال ، بعد أن قضى الأمويون على مناوئيهم واستعادوا سيطرتهم على الأقاليم الاسلامية فى عهد عبد الملك بن مروان ، اهتموا باستعادة نفوذهم فى عمان • وقد ظل أهل عمان بقيادة سليمان وسعيد بن عباد الجلندى يقاتلون الأمويين ، الى أن أرسل اليهما الحجاج قوات بحرية وبرية عظيمة ، استطاعت الحاق الهزيمة بهما والقضاء على نفوذ أهل عمان ، ومن الأسباب التى أدت الى هزيمة أهل عمان ، ذلك الأسلوب الذى لجأ اليه عبد الملك بن مروان ، اذ اتبع سياسة قبلية فى شبه الجزيرة العربية ، واستعان ببعض القبائل على البعض الآخر ، وبمعنى آخر استعان بقبائل نزار ضد قبيلة الأزد العمانية ، وفى المعارك العنيفة التى دارت فى عمان بين هذين الفريقين انهزم الأزد تحت قيادة سليمان وسعيد الجلنديين ، «فاستشعرا العجز» فحملا ذراريهما وأسوادهما ومن معهما من قومهما ، ولحقا ببلد من بلدان الزنج (ساحل شرق افريقية) (٤١) ، حيث انتشر الاسلام بفضلهم فى كثير من أنحاء الساحل •

---

(٤٠) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ، حـ٤ ص ٢٠٢ ـ ٢٠٣ ، عبد الرحمن العانى : المرجع السابق ، ص ٨٧ ـ ٨٨ •

(٤١) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، حـ٦ ، ص١٧٠ ـ ١٧٢ ، ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حـ٤ ، ص ٢٠٥ ، السالمى : تحفة الأعيان فى سيرة أهل عمان ، حـ١ ص ٥١ ـ ٥٩ ، السيابى : اسعاف الأعيان فى أنساب أهل عمان ، ص ٧٤ ـ ٧٥ ، مجهول المؤلف : قصص وأخبار جرت فى عمان ، ص ٤١ ـ ٤٢ ، ابن رزيق : الفتح المبين فى سيرة السادة البوسعيديين ، ٢١٣ ـ ٢١٦ •

والواقع أن هجرة العمانيين الى ساحل شرق افريقية تعتبر حدثا هاما فى تاريخه ، اذ توضح لنا أن العمانيين لفترة طويلة من « العصور المظلمة » التى اكتنفت ذلك الساحل ، كانوا يترددون عليه ، وأنه كان معروفـــا تماما لديهم وخاضعا لنفوذهم الى حد ما ، ولهذا السبب لم يلجأ الأخوان الجلندبان الى أى مكان آخر فى شبه الجزيرة العربية ، وآثرا التوجه الى الساحل ليقينهما من أنهما سينالا استقبالا طيبا (٤٢) • وقد ألقى الأستاذ هتشنز Hichens المزيد من الضوء على تلك الهجرة حين عثر على كتاب ألفه شيبو بن فرج بن حمد الباقرى وعنوانه أخبار لامو ، يعرض فيه لتاريخ هـذا البلد والهجرات الأولى التى وفدت اليه ، فقد ذكر أن تلك الهجرة الأولى استقرت فى مدينـة لامو شمال ممبسة ، وكانت السبب فى ظهور أمارة اسلامية فى ذلك الوقت ، وشغلت تلك الهجرة مكانة جديرة بالاعتبار ، بدليل أن حفيد هؤلاء العمانيين ويدعى الحاج سعيد استطاع أن يؤلف حكومة شورى فى مستهل القرن الثـامن الميلادى ، سارت على تعاليم مذهب الخوارج الاباضية ، الذى انتشر بين أزد عمان • ويذكر صاحب تاريخ لامو أيضا أن المهاجرين من الشام والهنـد بمدينة حدبو وأهل مدينة ويونى ، قد اختاروا سعيدا زعيما عليهم ، فرسم لهم أن تقسم المدينة الى أحياء صغرى ، لكل منها شيخها ، وشيوخ الأحيـاء كلهم يؤلفون مجلسا استشاريا يشاركه أعباء المسئولية ، وأصبح لكل مواطن حق اللجوء الى هذا المجلس طالبا انصافه اذا مسه سوء ، وبذلك كانت امارة لامو هذه أقدم الامارات العربية الاسلامية ظهورا فى ساحل شرق افريقية (٤٣) •

وتبعت هذه الهجرة هجرة عربية من اليمن جاءت الى ساحل شرق افريقية فى عام ١٢٢ هـ (٧٣٩) ، وفى هذه المرة كانت لأسباب دينية ، اذ حدث انقسام فى صفوف الشيعة ، ولقى الزيدية الاضطهاد على أيدى الأمويين • ويرى البعض أن سلالة زيد – أى الزيديين – كانوا أول من انحدر الى الساحل،وقد استند فى ذلك الى احد الكتب التاريخية العربية ، الذى عثر عليه البرتغاليون فى مدينة

---

(٤٢) Ingrams, op. cit., p. 73

(٤٣) حسن أحمد محمود : الاسلام والثقافة العربية فى أفريقية ، ص٣٩٧ – ٣٩٨ ؛ عبد الرحمن زكى : الاسلام والمسلمون فى شرق أفريقيا ، ص ٧٧ •

كلوة حين اجتاحها دون فرنسيسكودالميدا فى سنة ١٥٠٥ م ، جاء به أن جماعة وفدت على هذا الساحل ، كان سببها اضطهاد الزيدية على أيدى الأمويين ، ويستدل على ذلك بأن طائفة من العرب فى افريقية كانت تسمى « بالأموزيديج» Emozaidij ، وهى تحريف سواحيلى لكلمة الزيدية ، وليس ببعيد أن زيدا الذى انتسبت اليه تلك الجماعة هو زيد بن على حفيد الحسين بن على بن أبى طالب ، وكان قد نادى بأنه الامام المهدى فى عهد الخليفة هشام بن عبد الملك (٧٢٤ – ٧٤٣) ، وأشعل نار الثورة بين الشيعة ، ولكنه هزم وقتل فى سنة ١٢٢ هـ ، مما أدى الى فرار جماعة من أتباعه الى الساحل الأفريقى الشرقى (٤٤) وكان أن استقرت تلك الجماعة فى منطقة شنجوايا Shungwaya على الساحل بالقرب من مقديشيو ، وسرعان ما حصلت على بعض النفوذ (٤٥) ٠

ويبدو أن تلك الهجرة ظلت محتفظة بنفوذها على الساحل ، حتى أتتها فيما يبدو فى سنة ٢٧٤ هـ (٨٨٧ م) جماعة عربيـة سـنية المذهب ، وفيرة العدد ، أصلها من مدينة مجاورة للأحساء بمنطقة الخليج العربى ، خرجت فى ثلاث سفن تحت قيادة سبعة اخوة ، فرارا من اسـتبداد حـاكم الأحسـاء ، واستقرت تلك الجماعة السنية فى مقديشيو وبراوة اللتان أصبحتا عاصمتين لدولة هامة ، اسـتطاعت أن تغزو الشريط السـاحلى كله حتى ممبسـة جنوبا (٤٦) ٠ أما الزيدية خصوم تلك الجماعة فى المذهب ، فقد رفضوا الاذعان لها ، ومن ثم هاجروا الى الداخل ، واختلطوا بالسكان الأصليين ، وكونـوا علاقات قوية معهم ، كما قاموا بدور التجار المتجولين فى الداخل ٠ حيث كانوا يجمعون المحاصيل والسلع ويرسلونها الى الساحل لتبيعها ، هذا ويعتقـد الكولونيل رجبى Rigby أن جماعة الأحساء السنية كانت من قبيلة الحارث العربية ، اذ من المعروف أنها استقرت فى زنجبار فى سنة ٣١٢هـ(٩٢٤م) (٤٧)

---

(٤٤) أرنولد : الدعوة الى الاسلام ، ص ٢٨٦ – ٢٨٧ ، جيان : وثائق تاريخية وجغرافية ، ص ٧١ – ٧٢ ٠

(٤٥) Ingrams, op. cit., p. 75.

(٤٦) Oliver & Mathew, op. cit., vol. I , pp. 103 — 104; Marsh & Kingsnorth, op. cit., p. 21.

(٤٧) Ingrams, op. cit., pp. 75 — 76.

ويستفاد من تاريخ ساحل شرق افريقية منذ القرن العاشر الميلادى حتى القرن الثالث عشر، أن مناطق هذا الساحل صارت مألوفة تماما لعرب شبه الجزيرة العربية والخليج العربى . وفى خلال تلك الفترة كان معظم الوافدين الى الساحل من أهل عمان، وذلك لما سبق أن ذكرناه من أن الصحراء تحدها من الغرب، والبحر من الجنوب والشرق، وليس لها وسيلة للرزق الا عالم البحار الواسع حيث الملاحة والتجارة البحرية (٤٨). وعلى أية حال كانت سفن عمان وسيراف التجارية تتردد على ساحل شرق افريقية فى أوائل القرن العاشر الميلادى، ويتضح من وصف المسعودى للحركة الملاحية بين عمان وهذا الساحل أن عرب الازد والسيرافيين، كانوا على دراية تامة بمياه المحيط الهندى، وأصحاب خبرة بها . وقد وصف المسعودى (٤٩) مياه ذلك المحيط وسكان ساحل شرق افريقية قائلا : «وأهل المراكب من العمانيين يقطعون هذا الخليج الى جزيرة قنبلو من بحر الزنج، وفى هذه المدينة مسلمون بين الكفار من الزنج، والعمانيون الذين ذكرنا من أرباب المراكب يزعمون أن هذا الخليج المعروف بالبربرى، وهم يعرفونه ببحر بربرى وبلاد جفونى، ... وموجه عظيم كالجبال الشواهق، فانه موج أعمى يريدون بذلك أنه يرتفع كارتفاع الجبال ، وينخفض كأخفض مايكون من الاودية، لاينكسر موجه ولايظهر من ذلك زبد كتكسر أمواج سائر البحار، ويزعمون أنه موج مجنون، وهؤلاء القوم الذين يركبون هذا البحر من أهل عمان عرب الازد ... وينتهى هؤلاء فى بحر الزنج الى جزيرة قنبلو على

---

(٤٨) Wilson, the Persian Gulf, p. 77;

جمال زكريا قاسم : الأصول التاريخية للعلاقات العربية الأفريقية ، ص ٨٣ .

(٤٩) مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ح١ ص ١٢٢ – ١٢٣ .

(٥٠) يرجح جيان (وثائق تاريخية ، ص ٨٠ – ٨١) أن المقصود بجزيرة قنبلو (قنبلة) هى احدى جزر القمر ، وخاصة الجزيرة الغربية منها ، وذلك لخصوبتها ووفرة أخشابها الصالحة لبناء السفن وترميمها ، وانتشار أشجار النارجيل التى تؤخذ لعمل الحبال الصالحة للملاحة . أما حورانى (العرب والملاحة ، هامش ص ٢٣١) فقد عرض للاراء التى دارت حول مكان قنبلة ، ومن بينها الرأى القائل أن قنبلة هى جزيرة بمبا القريبة من ساحل زنجبار . ويعتقد شاخت Schacht أن قنبلة هى جزيرة زنجبار ، أنظر :

Oliver & Mathew, op. cit., vol. I, p. 106.

ماذكرنا، والى بلاد سفالة والواق واق (٥١) من أقاصى أرض الزنـج، ...
ويقطع هذا البحر السيرافيون، وهم أرباب المراكب، مثل محمد بن الرويدم السيرافى، وجوهر بن أحمد، وهو المعروف بابن سيرة، وفى هذا البحر تلف ومن كان معه فى مركبه، وآخر مرة ركبت فيه فى سنة أربع وثلاثمائة (٩١٧م) من جزيرة قنبلو الى مدينة عمان، وذلك فى مركب أحمد وعبد الصمد أخوى عبد الرحيم بن جعفر السفرى بهيكان وهى محلة من سيراف وفيه غرقا فى مركبهما وجميع من كان معهما، وكان ركوبى فيه أخيرا والامير على عمان أحمد بن هلال ...، وقد ركبت عدة من البحار كبحر الصين والروم والخزر والقلزم واليمن، وأصابنى فيها من الاهوال مالا أحصيه كثرة، فلم أشاهد أهول من بحر الزنـج »٠

وثمة قصة تدعو تفاصيل أحداثها الى الدهشة، يبدو أنها كتبت فى أوائل القرن العاشر الميلادى ، وهى تصور لنا أن زعيم احدى قبائل منطقة ساحل شرق افريقية قد ساهم فى نشر الاسلام هناك ٠ وتبدأ أحداث تلك القصة فى سنة ٣١١هـ (٩٢٣م)، «عندما خرج بعض التجار فى سفينة من عمان، فالقت بهم الريح بأرض الزنج بالقرب من مدينة سفالة، وبها قوم يأكلون لحم البشر، وهناك توقع رجـال السفينة خطرا محققا، ولكن حدث مـاخالف ظنهم، اذ استقبلهم الملك بمودة وترحاب ، ومكنهم من بيع مـايحملـونه مـن بضائع بشروط مربحة، دون أن يأخذ منهم مكوسـا ٠ بيد أنهم قـابلوا الاحسان

---

(٥١) يرى فران أن هناك واقوقين : واقواق الجنوب وهى مدغشقر وشرق أفريقية جنوب سفالة ، وواقواق الصين وهى جزيرة الزابج أى سومطرة ، التى كان أهلها على علم بجزر الجزء الغربى من المحيط الهندى وسواحله ، وسكنوا مدغشقر فى عصر متقدم ، علاوة على أن لهجة مدغشقر متفرعة من لهجات الملايو ٠ ويؤيد حورانى صحة الحجج التى يسوقها فران فيما يتعلق بواقواق الجنوب ٠ أما بالنسبة لواقواق الصين فهى فى رأيه بعيدة عن الصحة ، لأن العرب كانوا يعرفون سومطرة جيدا ويسمونها الزابج ، ولو كانت الواقواق هى الزابج لنص عليها الجغرافيون العرب ٠ ويرى حورانى أن العرب لم يكونوا على بينة من الواقواق التى تصدق على جزر اليابان ٠ ويؤيد ذلك أن اسم اليـابان فى لهجة كانتون الصينية وو ـ كوك وهو اسم قريب من الواقواق ٠ أنظر : حورانى : المرجع السابق ، ص ٢٣٢ ٠

بالاساءة اذ عندما حان وقت سفرهم استأذنوا الملك فى السفر، فأذن لهم، وعندما اعتلى ظهر سفينتهم هو وسبعة من حاشيته لتوديعهم أوثقوهم وحملوهم معهم الى عمان رقيقا • وشاءت الاقدار أن تطوح الريح بهؤلاء التجار الى نفس المواضع بعد خمس سنوات، فعرفهم الاهالى وألقوا القبض عليهم، وساقوهم الى الملك، فانتابتهم الدهشة الشديدة حينما اكتشفوا أنه نفس الملك الذى عاملهم معاملة كريمة من قبل، وتجلى نبل أخلاقه عندما عاملهم برفق هذه المرة • وقص عليهم ماحدث له، كيف أخذ رقيقا الى البصرة حيث علمه مولاه الصلاة والصوم وقراءة سور من القرآن الكريم، ثم غافل مولاه ولحق بقافلة للحجاج، وبعد أن أدى مناسك الحج خشى أن يرجع الى مولاه فيعاقبه، ولذلك توجه الى القاهرة، وصعد فى النيل، حتى انتهى به المطاف عائدا الى بلاده، بعد أن عانى المشقات والاهوال • ولم يلبث أن علم قومه تعاليم الدين الاسلامى وفروضه، ثم ختم قصته بالعفو عن أولئك التجار لانهم كانوا سببا فى صلاح دينه ودنياه»•(٥٢).

وكان لظهور القرامطة أن حدثت قلاقل واضطرابات فى شبه الجزيرة العربية • ذلك أن عمان كانت من بين الولايات الاسلامية التى تدين بالطاعة للعباسيين فى أواخر القرن الثالث الهجرى • وقد تزعم الحكم فيها فى عهد الخليفة المعتضد بالله (٢٧٩ ـ ٢٨٩ / ٨٩٢ ـ ٩٠٢) بنو شامة بن لؤى بن غالب ، ففتح محمد بن القاسم الشامى عمان بمعاونة هذا الخليفة ثم وليها من قبله ، على أن الضعف والانحلال ما لبث أن أصاب عمان بسبب المنازعات التى قامت بين أبناء محمد بن القاسم سنة ٣٠٥ هـ ، وظل الاضطراب سائدا فيها حتى تغلب عليها سنة ٣١٧ هـ (٩٢٩ م) أبو طاهر القرمطى (٥٣) • وقد جاء القرامطة الى عمان فى عهد امامها عمر بن محمد بن مطرف ، « فاعتزل عن بيت الامامة ، ورجع القرامطة الى البحرين ، فلم يرجع عمر الى بيت الامامة » (٥٤) • وباعتزاله أعقب ذلك فترة شغور ، ثم عقد أهالى عمان

---

(٥٢) النويرى الاسكندرانى : كتاب الالمام بالاعلام فيما جرت به الاحكام والامور المقضية فى الاسكندرية، حـ٢ ص ١٢٢ ١٣٠

(٥٣) محمد جمال الدين سرور : النفوذ الفاطمى فى جزيرة العرب ، ص ٥١ •

الامامة لمحمد بن يزيد الكندى ، بيد أن الخلافة العباسية لم تلبث أن تغلبت على عمان ، وهرب محمد بن يزيد منها الى اليمن أو زنجبار (٥٥) • على أن النفوذ العباسى لم يلبث أن ضعف أمره فى عمان ، وسادتها الفتن والاضطراب ، خاصة أن الدولة الفاطمية فى مصر الهجرى (التاسع الميلادى) فى شبه الجزيرة العربية ، ليتيسر لها بذلك اضعاف الخلافة العباسية والقضاء عليها ، الأمر الذى لانستبعد معه أن كثيرا من أهالى عمان وجدوا فى ساحل شرق أفريقية الملاذ والأمن والاستقرار •

والواقع أنه يمكننا أن نربط بين الوضع العام فى العالم الاسلامي فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) وبين تتابع الهجرات والقادمين الى منطقة ساحل شرق افريقية • فمنذ مستهل هذا القرن ازداد ضعف الدولة العباســـية فى بغداد ، وتحطم رخاؤها بسبب ازدياد شوكة القواد من الأتراك ، وتفاقم خطر الدول المستقلة ، وانقسام المسلمين الى شيع وطوائف ، وليس أدل على مابلغه العالم الاسلامى من ضعف ووهن ابان ذلك القرن وجود ثلاث خلافات • الخلافة العباسية فى بغداد ، والخلافة الفاطمية فى بلاد المغرب ثم فى مصر ، والخلافة الأموية فى الأندلس • ونتيجة لذلك ، فان بعض الجماعات الاسلامية التى هالها تمزق العالم الاسلامى آثرت الابتعاد عن أحداثه ملتمسة النجاة ، فهبطت من بين ما هبطت ساحل شرق أفريقية ، متخذة منه دار غربة ووطنا ، ووجهت اهتمامها الى تأسيس محلات دائمة ودويلات هيأتها الظروف الجغرافية • وعلى هذا الأساس ظهر العديد من المدن العربية الاسلامية على طول الشريط الساحلى • ويؤكد ذلك وصف المسعودى (٥٦) • الذى زار منطقة الساحل الشرقى الافريقى فى أوائل القرن الرابع الهجرى ، فقد ذكر أن الامارات العربية تمتد من مقديشيو شمالا ، حتى سفالة جنوبا •

---

(٥٤) ابن رزيق : الفتح المبين فى سيرة السادة البوسعيديين ، ص٢٣٨ ، مجهول المؤلف : قصص وأخبار جرت فى عمان ، ص ٦٣ •

(٥٥) Miles, the Countries and Tribes of the Persian Gulf, pp. 94 — 97;

ابن رزيق : المرجع السابق ، ص ٢٣٩ ، مجهول المؤلف : المرجع السابق ، ص ٦٥ •

(٥٦) مروج الذهب ، ومعادن الجوهر ، حـ١ ص ١٢٣ — ١٢٥ •

ثم نأتى الى هجرة جماعية فارسية ، وفدت الى ساحل شرق أفريقية قادمة من شيزار الواقعة على الساحل الشرقى للخليج العربى ، بزعامة الحسن ابن على وأبنائه الستة طبقا للرواية العربية ، أو على بن الحسن طبقا لرواية المؤرخ البرتغالى دى باروس J. de Barros ، وذلك فى النصف الثانى من القرن العاشر الميلادى ٠ (٥٧) ويرى هتشنز استنادا الى بعض التواريخ المحلية أن تلك الهجرة حدثت بين عامى ١٠٥٥ و ١١٠٠ م ، على أثر فرار الشـيعة الشيرازيين من وجه طغرل بك السلجوقى ، الذى استولى على فارس (٥٨) ، ودخل بغداد فى سنة ٤٤٧ هـ (١٠٥٥ م) ٠ فى حين يرى البعض الآخر أن تلك الهجرة تمت فى أواخر القرن الثانى عشر ، اعتمادا على أنه عندما وصل الحسن بن على وجماعته الشيرازيون الى مدينة كلوة وجدوها آهلة بالمهاجرين والمستوطنين (٥٩) ٠

وعلى أية حال ، تذكر الرواية العربية التى أوردها صاحب كتاب « السلوة فى أخبار كلوة » ، أن أول من وصل الى كلوة كانت جماعة من المهاجرين من أهل شيراز فى سبعة مراكب بزعامة سلطانهم الحسن بن على وأولاده الستة ٠ وقد قيل عن سبب خروجه أنه رأى يوما فأرة خرطومها من حديد وهى تقرض الجدران ، فتشاءم بذلك على خراب بلاده ٠ وبعد أن شاور أولاده فى هذا الأمر رأى الانتقال بهم الى بلد آخر ٠ وتجهز السلطان بأهل بيته وبعض أمرائه ووزرائه ، وركبوا فى سبعة مراكب ، الى أن وصلوا الى ساحل شرق افريقية ٠ وهناك تفرقت المراكب ، فوصل أحدها الى كلوة بقيادة الحسن بن على ، فأعجبته ، ووجد بها رجلا من المسلمين مع من تبعه من ذويه وأولاده ، وعلم منه أن صاحب الجزيرة أحد الكفار ، فرغب فى شرائها ، وتقابل مع صاحب الجزيرة ، وكان المسلم ترجمانا بينهم ، فوافق على بيعها بشرط أن يدير الجزيرة كلها بثياب ملونة ، فقبل الحسن هذا الشرط وأعطاه ثمنها ثيابا أدار بها الجزيرة كلها (٦٠)

---

(٥٧) Oliver & Mathew, op. cit., vol. I, pp. 102 — 103.

(٥٨) جمال زكريا : الأصول التاريخية ، ص ٦٩ ٠

(٥٩) Marsh & Kingsnorth, op. cit., pp. 21 — 22.

(٦٠) السلوة فى أخبار كلوة ، من كتاب جهينة الأخبار فى تاريخ زنجبار ، ص ٣٧ ـ ٤١ ٠

أما المؤرخ البرتغالى دى باروس فقد تناول أسباب هذه الهجرة بصورة أخرى ، اذ يروى أن مدينة شيراز كانت تحت حكم ملك يدعى الحسن ، وبعد وفاته ترك سبعة أبناء ، كان أحدهم وهو المسمى بيعلى من أم جارية زنجية ، بينما كانت أم الستة الآخرين تمت بالصلة الى بعض أمراء فارس • ولما كان على من أم جارية ، فقد احتقره اخوته ، وعيروه بوضاعة أصله ، وعاملوه معاملة قاسية جعلته يقرر الهجرة الى ساحل شرق افريقية مع أبنائه وذويه • فأبحر من جزيرة هرمز ، ورسا فى مقديشيو أول الأمر ، ولكنه تجنبها بعد أن تبين له أن سادتها من العرب جماعة الأحساء السنيين ، الذين يخالفون مذهب الفرس الشيعى ، وانحدر بسفنه جنوبا بطول الساحل ، حتى نزل فى كلوة فأعجبته خصوبة أرضها ووفرة مياهها ، فاتخذها مقرا له ، وصارت عاصمة لدولة عرفت آنذاك بدولة الزنج ، كان لها الفضل فى توحيد معظم المراكز الاسلامية على الساحل ، من بمبا فى الشمال حتى سفالة فى الجنوب ، وتوطدت صلتها بزنجبار ، ولم يستعص عليها سوى مقديشو (٦١) • ومن الآثار المترتبة على تلك الدولة انتشار الاسلام بين الأفارقة الأصليين ، خاصة فى بمبا ومدغشقر وجزر القمر (جزائر الكومور) ، كما كان لها الفضل فى بناء المساجد الكبيرة المبنية بالحجارة ، ففى كيز يمكازى Kizimkazi الواقعة فى جنوب جزيرة زنجبار ، يقوم مسجد قديم ، يقع فوق محرابه نقش بالخط الكوفى نصه : « بأمر الشيخ السيد أبى عمران الحسن بن محمد ، أطال الله حياته المديدة ، اللهم اقض على أعدائه ، تم بناء هذا المسجد فى اليوم الأول من ذى القعدة سنة خمسمائة من الهجرة (الموافق ٢٧ يوليو سنة ١١٠٧ م) (٦٢) •

ولما كانت سلطنة كلوة ــ أو دولة الزنج ــ شيعية المذهب ، فقد كان من المتوقع أن تفرض تعاليم مذهبها على الأفارقة الأصليين ، وتعمل على نشره بينهم • ولكن هذا المذهب لم يكتب له البقاء طويلا، فى الوقت الذى لم يقبل الأفارقة عليه فى حماس تلقائى • ومما يدل على ذلك أن الرحالة ابن بطوطة

---

(٦١) جيان : وثائق تاريخية ، ص ٨٤ ــ ٨٦ ، أرنولد : الدعوة الى الاسلام ، ص ٣٧٨ •

(٦٢) Oliver & Mathew, op. cit., p. 107;

عبد الرحمن زكى : الاسلام والمسلمون فى شرق أفريقية ، ص ٨٢ •

عندما زار الأمارات الاسلامية فى شرق افريقية فى عام ١٣٣١م، وصف مظاهر العمران التى سادت فى كلوة قائلا : « ومدينة كلوة من أحسن المدن وأتقنهـــا عمارة ، وكلها بالخشب ، والأمطار بها كثيرة ، وهم أهل جهاد لأنهم فى بـــر واحد متصل مع كفار الزنوج ، والغالب عليهم الدين والصلاح ، وهم شافعية المذهب » (٦٣) • وعلى الرغم من أن سلطنة كلوة ترجع الى أصل فارسى ، الا أنه لم ينته القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) الا وكانت مدن الساحل قد استكملت مقوماتها وسماتها العربية ، اذ ساعدت الهجرات العربية المتوالية على طمس معالمها الفارسية واستحالت الى مدن عربية صرفة (٦٤) •

وشهدت كلوة فى القرن الثانى عشر ازدهارا ورخاء ، خاصة بعد أن أطاحت بسيطرة مقديشيو فى سفالة • اذ كانت مقديشيو تحصل على الذهب من سفالة، فرأى داود بن سليمان سلطان كلوة (١١٣٠ ــ ١١٧٠م) أن كلوة أحق به ، وبذلك قضى على تجارة الذهب فى مقديشيو • وتطلب ازدهار النشاط التجارى فى كلوة الحاجة الى سك نقود تقوم عليها المبادلات التجارية ، فلجأ سلاطينها الى سك مجموعة من العملات النحاسية جرى التداول بها منذ نهاية القرن الثالث عشر الميلادى ، حتى نهاية القرن الخامس عشر (٦٥) •

على أن ازدهار سلطنة كلوة لم يتجـــاوز منتصف القـــرن الرابـــع عشر الميلادى ، بسبب المنازعات التى قامت بينها وبين مدن الساحل من جهة ، وظهور مدن أخرى قوية أخذت تتوسع على حسابها من جهة أخرى • ورغم أن كلوة فقدت تماسكها ، وذهبت أهميتها ، الا أنها لاتزال تسيطر على الجزء الجنوبى من الساحل الشرقى لافريقية ، حتى قبل أن يوشك القرن الخامس عشر على الانتهاء ، اذ عندما أرسى فاسكودى جاما سفنه فى مياه موزمبيق فى أوائل مارس سنة ١٤٩٨ ، وجد أن حاكمها تابعا لسلطان كلوة ، كما علم أن موزمبيق أشهر ثغور مناطق الساحل ، حيث كانت السفن تفد اليها من شـــبه

---

(٦٣) الرحلة ، حـ١ ص ٢٠٠ •

(٦٤) محمد محمد أمين : المرجع السابق ، ص ٤٩ •

(٦٥) Trimingham, Islam in East Africa, p. 12; Oliver & Mathew, op. cit., p. 112.

الجزيرة العربية والهند ، جالبة اليها مختلف السلع والبضائع الوفيرة (٦٦)٠

ومما ساعد على أفول نجم سلطنة كلوة ارتفاع شأن حكام جزيرة بات (بيت) ، وهى احدى جزر أرخبيل لامو الواقع شمال ساحل كينيا ٠ ومن المعروف أن أولئك الحكام ينتمون الى قبيلة نبهان العمانية ٠ وقد ظهرت تلك القبيلة فى عمان عندما استولت على تقاليد الحكم بها فى سنة ٥٤٩ هـ (١١٥٤ م) ، ودانت لها معظم الأجزاء الداخلية ، الى أن عادت الامامة الاباضية مرة أخرى سنة ١٤٢٩ م ، ومع ذلك ظلت تلك القبيلة تمارس نفوذا كبيرا طوال قرنين آخرين ، الى أن ظهر الأئمة من أسرة اليعاربة سنة ١٦٢٤ ، فزال نفوذهـا (٦٧) ٠

وتذكر الروايات التاريخية المتعلقة بجزيرة بات ، أن سليمان بن سليمان ابن مظفر النبهانى صاحب عمان ، قد أتى الى هذه الجزيرة فى هجرة عربية كبيرة سنة ٦٠١ هـ (١٢٠٤ م) ، فاستقبله العرب المقيمون بها ، وكان معظمهم من اقليم عمان ، استقبالا طيبا ٠ وما لبث الأمير النبهانى أن تزوج من ابنة اسحق حاكم الجزيرة ، من سلالة الشيرازيين حكام كلوة ، وبعد اتمام الزواج تنازل اسحق عن الحكم لصهره ، فصار أميرها الشرعى ، وتأسس حكم الأسرة النبهانية فى تلك الجزيرة ٠ ويبدو أن النبهانيين أخذوا يمارسون سلطتهم أول الأمر ، شأنهم فى ذلك شأن حاكم أية مدينة من المدن الواقعة بين مقديشيو وكلوة (٦٨) ٠ بيد أنهم فى حوالى منتصف القرن الرابع عشر الميلادى صاروا يمثلون قوة كبرى ، فعلى عهد محمد الثانى بن أحمد (١٢٩١ ـ ١٣٣١) ـ وهو أول حاكم حصل على لقب فومو Fumo ـ اتسعت بات شمالا ، واستطاع هذا الحاكم أن يضم اليه مدينتى شانجا وفازا وهما من مدن جزيرة بات ، فضلا عن بعض الجزر المجاورة ، ثم عمل على توسيع دائرة نفوذه تجاه الشمال، فأخذ الجزية من المدن حتى براوة ومقديشيو ٠ أما ابنه عمر (١٣٣١ ـ ١٣٤٧) ،

---

(٦٦) Morgan, op. cit., p. 199;
جيان : وثائق تاريخية ، ص ٢٠٨ ـ ٢٠٩ ٠
عبد الرحمن زكى : المرجع السابق ، ص ١٢٣ ـ ١٢٤ ٠
(٦٧) Wilson, op. cit., p. 82
(٦٨) حسن أحمد محمود : المرجع السابق ، ص ٤٠٠ ـ ٤٠١ ، جمال زكريا: المرجع السابق ، ص ٦١ ٠

فقد وجه اهتمامه الى مد نفوذه جنوبا ، فاستولى على مدن جزيرة مانـدا الثلاث ، وهى ماندا وتاكا وكيناو (٦٩) ، ومدن جزيرة لامو المجاورة ، ومالندى ، ثم دخل فى حرب مع سلطنة كلوة ، انتهت الى استيلائه على جزر كريمبا فى الجنوب • ومن المحتمل أن أبناء عمر استولوا على سونجو منارا التى تقع جنوب كلوة مباشرة ، واتخذوا منها قاعدة ، تحكمت فى تجارة ميناء كلوة • ومن المحتمل أيضا أن سونجو منارا صارت العاصمـة الجنوبيـة لممتلكات الأسرة النبهانية ، فقد بنى بها مسجدا كبيرا يرجع تاريخه الى أواخر القرن الرابع عشر الميلادى ، ولازال هذا المسجدمعروفا بالمسجـد النبهانى حتى وقتنـا الحالى (٧٠) • وهكذا امتد نفوذ تلك الأسرة الى معظم مناطق الساحل الشرقى لافريقية ، وأصبحت بات مركزا لسلطنة عربية اسلامية ، لعبت دورا عظيما فى نشر لاسلام والثقافة العربية الاسلامية بين الأفارقة الأصليين •

تميز حكم السلطنة النبهانية بتقاليد جديد تتمثل فى الملائمة بين الضرائب وبين النشاط الاقتصادى للسكان ، اذ فرضت ضريبة انتاج مقدارها عشرة بالمائة (٧١) • على مختلف السلع ، بالاضافة الى أن تلك السلطنة أبقت على التقاليد السائدة فيما يتعلق بأسلوب الحكم فى المدن الخاضعة لها ، ذلك أنه قبل ظهور الأسرة النبهانية فى الساحل ، كانت كل مدينة تمارس شئونهـا بواسطة مجلس شورى يتألف من الشيوخ المحنكين ، وبعضها جعلت لنفسها رئيسا يورث الرئاسة لوريثه حسب التقاليد المرعية • وكان سكان جزيرة بات وحدهم الذين يدينون بالولاء المباشر للسلطان النبهانى ، أما المدن الداخلة فى دائرة نفوذه بما فيها الجزر المجاورة ، فقد كانت تدفع له الجزية فقط ، والدليل على ذلك أن مدينة سييو Siya الواقعة فى نفس الجزيرة ، كان لها مجلس شورى ، ولم يحكمها حاكم معين من قبل السلطان (٧٢) •

---

(٦٩) Trimingham, op. cit., p. 13
والترجمة العربية ، ترنجهام : الاسلام فى شرق أفريقيا ، ترجمة محمد عاطف النواوى ، ص ٤٥ ـ ٤٦ •
(٧٠) Oliver & Mathew, op. cit, vol. I, p. 119.
(٧١) حسن أحمد محمود : المرجع السابق ، ص ٤٠١ •
(٧٢) Trimingham, op. cit., p 13.

وعلى أية حال ، كانت هجرة قبيلة نبهان العمانية آخر الهجرات العربية الضخمة التى وفدت الى ساحل شرق افريقية • وهنا نلاحظ أن بعض الكتاب الأوربيين وخاصة من الانجليز ، كانوا يحاولون التركيز على الهجرات الفارسية، بغرض اضعاف النفوذ العربى على الساحل ، واعطائه مسحة فارسية ، فشجعت بريطانيا خلال سنوات حمايتها على زنجبار قيام الحزب الأفروشيرازى ، الذى تأسس فى زنجبار لمناهضة الحزب الوطنى ، وقد عرف عن الحزب الأفروشيرازى الادعاء بأن مسلمى الساحل ينحدرون أصلا من فارس وليس من الجزيرة العربية، والهدف من ذلك واضح وهو القضاء على المقومات والتأثيرات العربيــة • وليس من شك أنه كانت هنالك بعض السمات الفارسية ، الا أنها بطبيعة الحال لم تصل الى ماوصلت اليه السمات العربية فى ساحل شرق افريقية ، بل ليس من المبالغة القول أن تلك السمات الفارسية لم تلبث أن ضاعت فى غمار غلبة الحياة العربية على الساحل الشرقى لافريقية (٧٣) • ويؤكد هذا الرأى ما رواه الرحالة عن أحوال مدن الساحل فى العصور الوسطى ، ونخص بالذكر منهم ابن بطوطة ، الذى زار هذا الســاحل ـ كمــا أسلفنا ـ فى سنة ١٣٣١ ، وخلف لنا أوصافا دقيقة عن الروابط الوثيقة التى قامت بين تلك المدن الأفريقية وغيرها من أرجاء العالم العربى ، سواء فى ميدان التجارة أو العــــلم (٧٤) •

والخلاصة أنه اذا كانت العلاقة بين العرب وأفارقة ساحل شرق افريقية قد تطورت وبلغت ذروتها بعد ظهور الاسلام ، فان أصول هذه العلاقة ترجع الى ما قبل الاسلام بزمن طويل دون أن يقف فى سبيلها أى عائق • ولاشك أن العرب الذين هاجروا الى ساحل شرق افريقية قد ارتبطوا بالسكان الأصليين وصاهروهم ، وتركوا تأثيرات حضارية وسلالية ودينية لازالت حية حتى اليوم • وتكشف لنا الحفريات التى أقيمت فى مناطق متفرقة من الساحل عن الصورة الرائعة التى كانت عليها تلك المدن والمستوطنات • ويؤكد ذلك أنه فى حوالى القرن العاشر الميلادى ، كانت هناك مستوطنة غنية فى ماندا بالقرب من مدينة لامو ، قامت فيها بيوتا حجرية تدعو للاعجاب ، وشيد بها سور

---

(٧٣) جمال زكريا : الأصول التاريخية ، ص ١٧ •

(٧٤) ابراهيم العدوى : العروبة فى شرق أفريقية ، مجلة نهضة أفريقية ، العدد ١٨ ، مايو ١٩٥٩ ، ص ١٩ •

بحرى لصد الأمواج بأحجار مرجانية اللون ، وعرفت صهر الحديد ، كما عثر بها على كميات وفيرة من الفخار ذى الطابع الاسلامى ، مما يوحى بتجارة نشيطة مع الخليج العربى ، وان كان غياب العملة يشير الى أن تلك التجارة تتم بالمقايضة ، أما الحفريات التى أجريت فى كلوة ، فتثبت لنا أن سكانها كانوا على مستوى عال من المهارة الفنية ، فضلا عن أنها كانت مركزا لشبكة من الاتصالات التجارية بينها وبين مستوطنات الساحل الهامة ، مثل تومباتا ، وبمبا ، وزنجبار ، وفومبا ، وأرخبيل لامو ، ومقديشيو • ويلاحظ أن مدن الساحل فى القرن الخامس عشر الميلادى كانت مخططة بالشوارع التى شيدت على جانبيها البيوت الحجرية المكسوة بالملاط ، وقد أحيطت تلك البيوت بأراض زراعية نهض العبيد بزراعتها ، ومن المحتمل أن تكون هناك مستوطنات صغيرة ، قامت بين المدن الهامة الرئيسية ، شيد بكل منها مسجد جامع ، وبيت للحاكم مبنى من الحجر (٧٥) •

المهاجرون الآسيويون :

يطلق مصطلح آسيوى بوجه عام على الشعوب التى ترجع فى أصولها الى الهند وباكستان والصين والملايو ، ويستبعد من هذا المصطلح العرب والفرس فى القارة الآسيوية • ويعتبر الهنود أهم الشعوب الآسيوية التى وفدت الى ساحل شرق أفريقية واتخذته مقرا فى العصور الوسطى • والمعروف أن أولئك الهنود ينقسمون الى مسلمين وهندوس ، ويتبع المسلمون منهم عدة مذاهب أهمها الاسماعيلية ، والبهرة ، والاثنا عشرية • ويلاحظ أن كل طائفة مذهبية ظلت متعلقة بعاداتها وتقاليدها التى أتت بها من الهند ، فى الوقت الذى غلب عليها شعور مذهبى حاد جعل منها مجتمعا متماسكا من جهة،وفى عزلة عن بقية المجتمعات من جهة أخرى (٧٦) • ويلاحظ أيضا أن التجار الهندوس وقفوا من الاسلام والمسلمين فى مدن الساحل موقفا مسالما لم تعكره شائبة ، ونتيجة لذلك استطاعوا

---

(٧٥) Marsh & Kingsnorth, op. cit., p. 22.

(٧٦) Hollingsworth, the Asians of East Africa, pp. 3 — 4.

(٧٧) Singh, Portrait of A Minority Asian in East Africa, p. 1.

القيام بأعمالهم التجارية فى حرية واطمئنان على مدى السنين • ومهما يكن من أمر ، فان الهنود الذين كانوا يقصدون ساحل شرق افريقية سواء للتبادل التجارى فى مواسم الرياح أو للاقامة الدائمة ، أثبتوا أنهم أكثر الشعوب الآسيوية التى عرفها هذا الساحل نشاطا واهتماما بالتجارة ، فقد ساهموا بدور هام فى تجارة المحيط الهندى ابان فترة ازدهارها ، وبعد أن تحطمت تلك التجارة على أيدى البرتغاليين ، ظلت الحاجة ماسة لمهارتهم وخبرتهم (٧٧) •

والواقع أنه من الصعب علينا أن نحدد الفترة التى بدأ فيها الهنود يفدون الى الساحل الشرقى الأفريقى ، وان كان من المحتمل أنهم اقتفوا آثار العرب خلال هجراتهم المتوالية الى هذا الساحل منذ عصور موغلة فى القدم(٧٨)، وأقاموا معهم فى مستوطناتهم ومراكزهم التجارية ، التى بلغت شأوا بعيدا فى الازدهار بين عامى ٨٠٠ و ١٥٠٠ م • فقد شهدت تلك الفترة نشاطا تجاريا ملحوظا فى مياه المحيط الهندى ، قام على أيدى التجار العرب المستقرين فى مدن الساحل ، حيث كانوا يصدرون العاج والذهب والعبيد الى شبه الجزيرة العربية وفارس والهند ، ويجلبون السلع التى اشتهرت بها تلك البلاد • والجدير بالذكر أن التجار العرب فى الجزء الغربى من المحيط الهندى ، لم يوجهوا عنايتهم الى التنظيمات المالية المتعلقة بتجارتهم ، واكتفوا باسناد شئوونها الى الهنود المقيمين معهم ، لبراعتهم فى هذا المجال ، وعلى وجه الخصوص فى أعمال الصيرفة (٧٩) • كما أن العرب والهنود المقيمين فى الساحل لم يظهروا الرغبة فى كشف القارة الواسعة الواقعة خلف الساحل ، وتركز نشاطهم على السلع التى كان يأتى بها الأفارقة من الداخل ، مثل العاج والعنبر والذهب والعبيد ، ومقايضتها بالسلع التى كانوا يجلبونها من الخارج مثل الخرز والزجاج والأشغال المعدنية والملابس (٨٠) •

وعندما غزا البرتغاليون ساحل شرقى أفريقية فى عام ١٤٩٨ وجدوا العديد

---

(٧٨) Ingrams, op. cit., pp. 33 — 35.

(٧٩) Hollingsworth, op. cit., p. 12, Marsh & Kingsnorth, op. cit., pp. 23 — 24

(٨٠) Marsh & Kingsnorth, op. cit., p. 24.

من الهنود في الموانى الهامة ، فظنوا في البداية أنهم مسيحيون مثلهم ، ولكن البرتغاليين سرعان ما وقفوا على حقيقة أمر الهنود ، اذ تبين لهم أنهم غير مسيحيين ، ويدينون بالطاعة التامة للعرب ، الذين كانوا يمثلون الطبقة الحاكمة الأرستقراطية (٨١) ٠

بقى أن نذكر أن عرب ساحل شرق أفريقية أطلقوا على الهنود اسم بنيانى Banyani ، وهو تحريف الكلمة الهندوستانية بنيا Bunia ومعناها تاجر ، وهم يتميزون بالهدوء والمسالمة والميل الى العزلة ، وعرف عنهم حبهم الشديد للمال ، حتى وصفهم العديد من الرحالة الأوربيين بيهود الشرق ، ومن أولئك الرحالة الألمانى فان ليخوتن الذى قضى بضع سنوات فى جوا فى نهاية القرن السادس عشر ، والرحالة الأمريكى روشنبرجر الذى زار زنجبار فى سنة ١٨٣٥ ، حيث لاحظ أن الهنود وسط العرب ، مثلما كان اليهود وسط المسيحيين ، فهم ناجحون ويحبون المال حبا جما ، ووصفهم الرحالة بيرتون «باليهود المحليين» وأشاد بهدوئهم وصراحتهم ولباقتهم ، أما الرحالة هنرى مورتون ستانلى الذى تعامل كثيرا مع التجار الهنود خلال اعداد قافلته فى زنجبار سنة ١٨٧١ ، فقد ذكر أن البنيانى يبدو مثلا أعلى للرجل الحريص على جمع المال ، ففى جيوبه الواسعة ينساب المال ، كما ينساب الماء أسفل منحدر شديد (٨٢) ٠

أما الصينيون ، فقد سبقت الاشارة الى أن أساطيلهم التجارية زارت ساحل شرق أفريقية ٠ ومما يؤكد الاتصال التجارى بين الشرق الأقصى وساحل شرق أفريقية اكتشاف أعداد هائلة من العملات الصينية فى مقديشيو وكلوة ومافيا وغيرها ، يرجع تاريخها الى الفترة الواقعة بين سنتى ٧١٣ و ١١٦٣م (٨٣) ، وقد قام قسم العملات فى المتحف البريطانى بفحصها،وتبين أنها منسوبة الى الامبراطور شن تسونج الذى حكم الصين بين سنتى ١٠٦٨ و ١٠٨٦ م (٨٤) ٠ وفى القرن الخامس عشر الميلادى كان الخزف الصينى فى

---

(٨١) Hollingsworth, op. cit., p. 24.

(٨٢) Ibid., pp. 127 — 128.

(٨٣) Eliot, The East Africa Protectorate, p. 11

(٨٤) Pearce, op. cit., p. 49.

كلوة أكثر شيوعا من الخزف الاسلامى ، فى الوقت الذى كانت كميات ضخمة من الأقمشة القطنية ترد الى كلوة من الهند والصين (٨٥) • وتفيد المصادر الصينية أن أسطولا صينيا زار مدينة مقديشيو فى سنة ١٤٣٠ لغرض التجارة ، وفضلا عن ذلك تزعم عائلة فى مدينة لامو أنها من أصل صينى أو ملاوى (ماليبزى)، وقد هبط أسلاف تلك العائلة ساحل المدينة بسبب تحطم سفينتهم (٨٦) •

ومن الشعوب الآسيوية التى استقرت فى ساحل شرق أفريقية جماعات من الشعب الملاوى Malays ، وهو شعب بحار عرف بشجاعته وميله الى المغامرة ، فقد سيطر منذ تاريخ مبكر قديم على خليج البنغال ، وأسس مستوطنات فى جاوه وسومطرة وبورنيو وغيرها من الجزر • وتجمع آراء الباحثين على أن الشعوب الملاوية ـ البولينزية قد وفدت الى الساحل حتى مدغشقر منذ أمد بعيد ، ويؤكد ذلك الصلات اللغوية القوية بين تلك الشعوب وأهالى مدغشقر ، هذا ومن المعروف أن قبيلة أنتيمارانا وهى قبيلة مدغشقرية يرجع اصلها الى الملايو أوجاوة ، وقد وفدت الى ساحل مدغشقر منذ بضعة قرون ، ثم تحركت الى الداخل • ومن المحتمل أن الملاويين قد عرفوا مناطق الساحل الشرقى لافريقية قبل ذلك ، اذ اعتاد تجارهم التردد على سفالة لتبادل التجارة مع سكان الساحل ، ومما يذكر أن العادات المتبعة عند مولد طفل بين أهل زنجبار تشبه تماما مثيلتها فى الملايو ، ومن المرجح أن الملاويين هم الذين جلبوا الى الساحل أنواعا من النباتات المعروفة عندهم ، مثل شجرة الأريقة (وهى من الفصيلة النخلية) والتامبول وقصب السكر ، كما اعتاد أهالى الساحل استخدام فخار من نوع قديم يقال أنه جلب من الملايو (٨٧) •

---

(٨٥) Curtin, Feierman, Thompson & Vansia, African History, p. 143.

(٨٦) Eliot, op. cit., p. 11.

(٨٧) Eliot, op. cit., pp. 86 — 87.

الفصـــل الثـــانى

الثقافة العربية الاسلامية فى ساحل شرق أفريقية

- اللغة السواحلية ٠
- انتشار الاسلام فى داخل القارة ٠
- المذاهب الاسلامية فى الساحل ٠
- الطرق الصوفية ٠
- تجارة الرقيق فى الساحل ٠

ارتبط ساحل شرق أفريقية طوال العصور الوسطى بنشاط العرب التجارى والهجرات العربية اليه ، فضلا عن هجرات أخرى قامت بها جماعات من الفرس من شيراز ، والهنود وغيرهم • ولا شك أن الهجرات العربية بظهور الاسلام فى القرن السابع الميلادى كانت أبرز الهجرات التى شهدها الساحل ، وأهمها تأثيرا فى تاريخه ، بحكم العامل الجغرافى الذى يتمثل فى قرب شبه الجزيرة العربية ، وخاصة سواحلها الممتدة من عمان الى عدن ، من سواحل شرق أفريقية • ونتيجة لذلك لعب العرب الدور الحاسم فى نشر الاسلام والثقافة العربية الاسلامية فى ساحل شرق أفريقية ، اذ نشأت بجهودهم مدن أو مراكز تجارية ، اعتزوا فيها بدينهم واحترامهم لأنفسهم ، فترك ذلك انطباعا طيبا فى نفوس الأفارقة ، جعل الكثير منهم يقبلون على الدين الاسلامى • ومن ناحية أخرى ، كان اختلاط العرب المسلمين الوافدين الى الساحل بالأفارقة ، وتزوجهم من بناتهم ، خطوة لما هو أبعد من ذلك ، اذ أدرك الأفارقة أن الدين الاسلامى يقوم على مبدأ الاخوة والمساواة ، ونظروا اليه على أنه دين السود والبيض جميعا •

ويهمنا الاشارة الى أن استقرار المهاجرين العرب على طول الساحل الشرقى الأفريقى ، وعدم توغلهم فى داخل القارة ، وارتباطهم عبر البحر بمواطنهم الأصلية فى شبه جزيرتهم ، كل ذلك حال دون ذوبانهم فى الأفارقة الأصليين • وعلى عكس ذلك بالنسبة للأفارقة ، فقد نتج عن اختلاط العرب بهم فترة طويلة ، تلطيف صفاتهم الزنجية ، وان كانت تلك الصفات مازالت واضحة فى أغلبيتهم (١) •

وثمة رأى لتوماس أرنولد (٢) حول انتشار الاسلام فى ساحل شرق أفريقية ، يتلخص فى أنه رغم وجود صلة دامت قرونا بين الأهالى الأفارقة وبين التجار العرب المسلمين فى البلاد الساحلية ، الا أن تأثر الأفارقة ــ فيما عدا الصومال ــ بالاسلام كان قليلا قلة ملحوظة • ويستطرد أرنولد بالقول انه حتى قبل الغزو البرتغالى لشرق أفريقية فى أوائل

---

(١) ابراهيم رزقانة : العائلة البشرية ، ص ٢٩٦ •
(٢) الدعوة الى الاسلام ، ص ٣٨٠ ــ ٣٨١ •

القرن السادس عشر الميلادى ، يظهر أن ماتم من حالات قليلة من تحول الأفارقة الى الاسلام كان مقصورا على الشريط الساحلى فقط . ولاشك أن المتأمل فى هذا الرأى ، ليبدو له لأول وهلة بساطته . اذ يجب أن نضع فى الاعتبار أن جيوش الفتح الاسلامى التى خرجت من شبه جزيرة العرب فى القرن السابع الميلادى فى الأقاليم المجاورة ، لم تصل الى ساحل شرق أفريقية ، فى حين أن الجهود التى بذلت لنشر الاسلام فى هذا الساحل جهودا فردية رائعة ، نهضت بها جماعات عربية اسلامية اشتغلت بالنشاط التجارى أساسا . أضف الى ذلك أن المد الاسلامى الوافد الى ساحل شرق أفريقية فى ركاب الهجرات العربية القادمة من جنوب الجزيرة العربية ومنطقة الخليج العربى ، لم يتوقف على مر السنين ، وترتب على ذلك أن تأسست مدن اسلامية مزدهرة على الساحل ، صارت بيئة صالحة لانتشار الاسلام بين الأفارقة من ناحية ، وتغلب مظاهر الثقافة العربية الاسلامية عليهم من ناحية أخرى . ونلمس ذلك بوضوح فى دولة الزنج التى ظهرت فى الساحل فى القرن العاشر الميلادى ، وظلت باقية حتى أوائل القرن السادس عشر ، رغم القلاقل والانقسامات التى تنازعتها ، فقد شيدت تلك الدولة عدة مدن اسلامية ، وأقامت المساجد فى كل مدينة ، حيث عرف الكثير من القبائل الأفريقية الطريق اليها ، وفى هذا المظهر الدينى يتوفر الدليل القاطع على أن كثيرا من الأهالى الأفارقة قد تحولوا الى الاسلام ، وليس كما زعم أرنولد أن قلة ملحوظة هى التى تأثرت به . والحق أنه من المبالغة القول أن الوثنية اختفت تماما من المدن الساحلية ، حيث مازالت تعتنقها عدة قبائل ، وان كنا لايمكن أن نقارنها بمراكز الوثنية فى مناطق الأدغال فى غرب ووسط وجنوب القارة الأفريقية ، ولكن هذا لا يقلل من شأن الدور الذى قامت به دولة الزنج فى الدعوة الى الاسلام . وقد كان بوسع تلك الدولة أو العرب المسلمين المقيمين على طول الساحل أن يصبغوا الأفارقة كلهم بطابع الاسلام ، لو لم تقتحم أساطيل الغزو البرتغالى فى أوائل القرن السادس عشر مياه هذا الساحل ، الأمر الذى أعاق مسيرة المد الاسلامى والثقافة العربية الاسلامية قرابة قرنين ونصف ، وهى حقبة طويلة . ومما يجدر ذكره أن الحماس الدينى دفع دولة الزنج الى الجهاد فى سبيل الله ، بهدف نشر

الدين الاسلامى ، ويؤكد ذلك الوصف الذى أورده ابن بطوطة (٣) عن أهل مدينة كلوة عاصمة تلك الدولة ، بقوله : « وهم أهل جهاد لأنهم فى بر واحد متصل مع كفار الزنوج ، والغالب عليهم الدين والصلاح » . وفى مكان آخر يشيد ابن بطوطة (٤) بتمسك سلطان كلوة بأهداب الدين الاسلامى ، وخروجه للغزو فى سبيل الله ، قائلا : « وكان سلطانها فى عهد دخولى اليها ابو المظفر حسن (١٣٠٨ - ١٣٣٤) ، وكان كثير الغزو الى أرض الزنوج ، يغير عليهم ويأخذ الغنائم فيخرج خمسها ، ويصرفه فى مصارفه المعنية فى كتاب الله تعالى ، ويجعل نصيب ذوى القربى فى خزانة على حدة ، فاذا جاءه الشرفاء دفعه اليهم ، وكان الشرفاء يقصدونه من العراق والحجاز وسواها ، ورأيت عنده من شرفاء الحجاز جماعة . وهذا السلطان له تواضع شديد ، ويجلس مع الفقراء ويأكل معهم ، ويعظم أهل الدين والشرف » .

هذا وجريا على عادة الباحثين الأوربيين الذين تناولوا تاريخ شرق أفريقية ،فى التقليل من شأن دور العرب فى هذه المنطقة ، يرى تريمنجهام(٥) أنه بالامكان تقسيم تاريخ الثقافة الاسلامية فيها الى ثلاث فترات أساسية : الفترة الأولى وتتضمن الاستقرار المبكر للعرب والمسلمين فى الأماكن الساحلية ، حيث اعتنق بعض الزانج (الأفارقة) الاسلام ، والفترة الثانية ، ويمكن أن يطلق عليها الفترة الشيرازية ، وهى التى انتهت بتكوين مجموعات صغيرة على الساحل وفى جزر القمر ، حيث أقامت نمطا من الثقافة الاسلامية ، ثم حل الاستعمار البرتغالى ، فانقطع بسببه الطابع العادى للحياة فى المنطقة ، والفترة الثالثة ، وهى التى اعقبت انهيار الاستعمار البرتغالى ، اذ تزايد النفوذ السياسى لعمان ، ثم تأسست دولة زنجبار ، مما ادى الى اعادة تشكيل الحياة الشيرازية المنهارة ، فى الوقت الذى شرع المسلمون الآسيويون يلعبون دورا متزايدا كمستوطنين ، وبرغم ان دورهم فى حياة البلاد ، له اهمية اقتصادية

---

(٣) الرحلة ، جـ ١ ص ٢٠٠ .
(٤) الرحلة ، جـ ص ٢٠١ .
(٥) Trimingham, Islam in East Africa, pp. 1 — 2.
والترجمة العربية ، تريمنجهام : الاسلام فى شرق أفريقيا ص ٣٤ .

تفوق الى حد بعيد أهميته الدينية ، فقد جلبوا معهم انقساماتهم الدينية . والواقع أن هذا التقسيم الذى يركز على تأثير الحياة الشيرازية الفارسية فى الساحل يحوى كثيرا من المبالغة . اذ الغرض منه – كما سبق أن ذكرنا – محاولة لهدم العلاقات العربية الافريقية فى العصور الوسطى ، وهى محاولة عمل المستعمر الأوربى الحديث على ترويجها ونشرها بين السكان الوطنيين ، بعد أن أطاح بالنفوذ العربى الاسلامى فى الساحل . صحيح أن الشيرازيين أسسوا مدينة كلوة – عاصمة دولة الزنج – فى منتصف القرن العاشر الميلادى ، وأدخلوا بها مظاهر الحضارة الفارسية ، ولا سيما المبانى الحجرية التى مازالت بعض مخلفاتها باقيه الى اليوم ، ولكن ينبغى ألا يفوتنا أن الشيرازيين الأوائل كانوا قلة قليلة وسط محيط واسع من العرب المسلمين ، ولذلك لم ينته القرن العاشر الا وكان الساحل يغلب عليه الطابع العربى الاسلامى المتفوق آنذاك . وعلاوة على ذلك ، تشهد المعلومات التى كتبها الرحالة والمؤرخون والجغرافيون العرب عن هذا الساحل ، على مدى تعمق الثقافة العربية الاسلامية فى مدنه .

وعلى أية حال ، كان من نتيجة انتشار الثقافة العربية الاسلامية فى منطقة الساحل ، أن اهتم السكان – على اختلاف عناصرهم – بالعلوم الدينية واللغة العربية ، فمن كلوة سافر طلاب العلم الى شبه الجزيرة العربية لينهلوا من علوم المعرفة وبخاصة فى الدين والفقه ، وكان من بينهم الأمراء ، فقد تنقل السلطان أبو المواهب (١٣٠٨ – ١٣٣٤) قبل ارتقائه عرش السلطنة فى كلوة ، بين عدن ومكة لطلب العلم ، وكان قد وصل الى مكة وهو لم يزل فى الرابعة عشرة من عمره (٦) . ومما يؤكد شدة حاجة سكان الساحل الى تحصيل العلوم العربية ، مارواه أبو الحسن على بن أحمد بن عبد العزيز الميورقى (ت ٤٧٤ هـ) الذى زار البصرة فى سنة ٤٦٩ هـ (١٠٧٦) ، اذ ركب من عمان الى بلاد الزنج ، « وكان معه من العلوم أشياء ، فما نفق عندهم الا النحو ، وقال : لو أردت أن

---

(٦) محمد محمد أمين : المرجع السابق ، ص ٥٢ .

أكسب منهم ألوفا لأمكن ذلك ، وقد حصل لى منهم نحو ألف دينار ، وتأسفوا على خروجى من عندهم (٧) » .

ونتيجة لامتزاج الدماء العربية بالدماء المحلية الأفريقية ، وتأثير كل منهما فى الاخرى ، ظهر فى الساحل مجتمع جديد عرف بالمجتمع السواحيلى له مميزاته الثقافية وخصائصه الخاصة ، من أبرزها مظاهر الالتقاء والمواءمة بين الاسلام والتقاليد المحلية التى لا تتعارض مع أصول الاسلام .

اللغة السواحيلية :

ونظرا لاختلاط سكان ساحل شرق أفريقية الأصليين بالعرب وغيرهم نشأت فى مناطق هذا الساحل لغة عرفت باللغة السواحيلية ، ولا ترجع تلك اللغة فى اصلها الى لغة قبيلة أفريقية بعينها ، ولكنها نمت كلغة للتجارة فى مراكز استيطان العرب وغيرهم ، بسبب اختلاط عدد من اللغات البانتوية بعضها بالبعض من ناحية ، وباللغة العربية من ناحية أخرى . وتتميز اللغة السواحيلية بأنها أسهل من لغات البانتو من حيث التركيب وقد دخلتها عدة مفردات عربية انصهرت فيها ، وأصاب بعض تلك المفردات يد التغيير ، حتى بعدت عن أصلها العربى . وتعتبر تلك اللغة من وجهة النظر الفيلولوجية ، بأنها لغة بانتوية فى قواعدها ، ولكنها فقدت بعض الخصائص الصوتية ، لكى تتلاءم مع الألفاظ العربية التى دخلتها ، ويمكن القول أيضا أن اللغة السواحيلية مركب لغوى من أصل بانتوى أفريقى ، مطعم بألفاظ عربية (٨) أو أنها مثل الثقافة السواحيلية ليست نتاجا عربيا متأفرقا ، ولكنها كانت ولا تزال نتاجا أفريقيا مستعربا ، فأسسها وعناصرها تتصل اتصالا مباشرا بلغات البانتو الأفريقية ، وان كان قد لحقها تأثير عربى كبير نتيجة قرونا طويلة من التجارة والاستقرار (٩) .

---

(٧) ياقوت الحموى : معجم البلدان ، حـ ٥ ص ٢٤٧ .

(٨) Morgan, East Africa, p. 68;

(٩) محمد جلال عباس : اللغة السواحيلية ، مجلة نهضة أفريقية ، ديسمبر ١٩٥٩ ، ص ١٧ .

باسيل دافيدسون : أفريقية تكتشف من جديد ، ص ٧٤ .

ويلاحظ أن اللغة السواحيلية بدأت فى التفوق على اللغة العربية وفرضت نفسها كوسيلة للتعبير وأداة للحديث بين الشعوب الملاصقة للساحل منذ حوالى القرن الثالث عشر ، ودون بها الأدب الشعبى فى حوالى القـــرن السادس عشر ، الى أن جاء القرن التاسع عشر ، فحلت محل العربية ، وقامت بمهمتها التاريخية فى التعبير عن الأفكار ونقلهـــا (١٠) • واذا كانت اللغة السواحيلية قد بدأت فى الانتشار بين سكان المناطق الساحلية والمدن الرئيسية ، خاصة فى زنجبار وممبســة ، فقــد امتــد نفوذهــا عــلى أيدى التجار فى داخل القارة غربا حتى المناطق الشرقية من حوض الكونغو وفى جميع أرجاء نياسلاند ، وفى تنجانيقا حيث لا نجد قرية من قراهـــا لا يتكلم أهلها اللغة السواحيلية ، وفى فيكتوريا نيانـــزا ، وفى سفوح جبال كليمنجارو ، وكينيا (١١) • ولكن درجة انتشارها فى الواقع تقل بالتدريج ، كلما بعدنا عن موطنها الأصلى على الساحل • وهنا نشـــير الى أن الأوربيين عاونوا على نشر هذه اللغة التى كانت سهلة بالنسبة لهم ، اذ من السهل على الأوربى تعلمهـــا ، أسهل بكثير من اللغـــة العربيـــة ، لأن قواعدهـــا أبســـط نســـبيا (١٢) ، وتفى بمطالب الحيـــاة اليوميـــة •

وتعرف اللغة السواحيلية بأنها لغة لطيفـة يطرب لها الســـامع ، فالحركات التى تنتهى بها كلماتهـــا ، والحركات التى عـــلى ما قبـل أواخـــر الكلمات تجعلها قريبة الشبه فى النطق باللغـــة الايطاليـــة ، وقـد جاءت تلك الحركات الحلقيـــة من اللغـة العربيـــة ، وتلطفت بحيث يستطيع الأوربى أن ينطق بها بسهولة (١٣) ، ولتلك اللغـة ثلاث لهجات معروفة هى (١٤) •

(١) لهجة ممبسة وتعرف باسم «كمفيتا» Kimvita وتنتشر فى المناطق الساحلية فى كينيا •

---

(١٠) Fage, The Hist. of Africa, p. 126.

(١١) حسن ابراهيم حسن : انتشار الاسلام والعروبة فى أفريقية ، ص ٦٤ ، محمد جلال عباس : نفس المرجع والصفحة •

(١٢) جون جنتر : داخل أفريقيا ، حـ٢ ص ١٥٣ ــ ١٥٤ •

(١٣) حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، ص ١٦٣ •

(٢) لهجة زنجبار وتعرف باسم « كيونجوجا » Kiungoga ، وهى أوسع انتشارا من اللهجة السابقة ، اذ تشمل جميع مناطق الساحل فى تنجانيقا ومناطق شرق أفريقية الداخلية ٠

(٣) لهجة الغرب وتعرف باسم « كنجوانا » Kingwaria. وتنتشر فى منطقة حدود الكونغو الشرقية ، غير أن تلك اللهجة نظرا لبعد مناطقها عن الموطن الأصلى للغة السواحيلية ، حدثت فيها بعض المتغيرات التى أبعدتها عن خواص اللغة الأصلية ٠

وتجدر الاشارة الى أن اللغة السواحيلية فى شرق أفريقية من أقدم اللغات الأفريقية التى استخدمت الحروف العربية فى كتابتها ، ولا يزال بعض سكان المنطقة الساحلية يتمسكون باستخدام تلك الحروف فى كتاباتهم ٠ ويكتب المهاجرون العرب الى الساحل وجنوب القارة الأفريقية لهجاتهم الخاصة بالحروف العربية الموروثة (١٥) ، فى حين يكتب الصوماليون لهجاتهم بالحروف العربية ، ولكنهم يكتبون خطهم العربى من أعلى الى أسفل (١٦) ٠

ومن المعروف أن المبشرين بالمسيحية قد اعتمدوا على اللغة السواحيلية فى بث دعايتهم بين مختلف القبائل الأفريقية ، لأنها لغة أرقى ، يمكنها التعبير عن مفاهيم الحضارة الحديثة ونقلها ، فى الوقت الذى بذلوا قصارى جهودهم لاستبدال الحروف العربية بالحروف اللاتينية للتعبير عن هذه اللغة ، وقد ساعدتهم فى ذلك السلطات الاستعمارية التى أطاحت بالنفوذ العربى فى مناطق شرق أفريقية ، ونظرا لاهمية اللغة السواحيلية ، فقد ألفت فيها الكتب ، وعملت لها المعاجم ، وترجمت اليها التوراة وغيرها من الكتب المسيحية، ونشرت بها عدة رسائل من الامثال الدارجة وحكايات وقصص وأشعار مختلفة ٠ (١٧)وفضلا عن ذلك، أصبحت تلك اللغة أداة

---

(١٤) محمد جلال عباس : المرجع السابق ، ص ١٧ ــ ١٨ ٠
(١٥) ابراهيم جمعة : قصة الكتابة العربية ، ص ٤٤ ــ ٤٥ ٠
(١٦) عبد المجيد عابدين : بين الحبشة والعرب ، ص ٢٢٧ ٠
(١٧) محمد عوض محمد : الشعوب والسلالات الأفريقية ، ص ١٠١ ٠
حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، ص ١٦٤ ٠

لغوية سهلت المعاملات التجارية والمالية، أى لغة مشتركة أو سائدة Lingua Franca يتفاهم الجميع بها (١٨) •

ولما سيطر البرتغاليون على الساحل، كان من الطبيعى أن تأخذ اللغة السواحيلية من اللغة البرتغالية، ولكن تأثير الاخيرة كان ضئيلا، لايمكن مقارنته بما أحدثته اللغة العربية من أثر (١٩) • ومما يدل على ذلك أن اللغة السواحيلية لاتزال تحتفظ بكلمة مسجد العربية لفظا ومعنى، فى حين أن الكلمة السواحيلية Gezeza المشتقة من الكلمة البرتغالية Igreja أى «كنيسة» لاتحمل معناها الحقيقى فى اللغة السواحيلية، وانما تعنى «سجن» والسبب فى ذلك أن البرتغاليين كانوا يبنون كنائسهم وسجونهم داخل القلاع التى شيدوها على طول الساحل (٢٠) •

ومهما يكن من أمر، فان الثقافة العربية الاسلامية أكسبت الساحل لغة قومية متولدة من اللغة العربية، قامت بدور هام فى مقوماته السياسية والحضارية ، وان كان هذا لا ينفى وجود اللغة العربية فى الساحل كلغة قائمة بذاتها •

ى

انتشار الاسلام فى داخل القارة

رأينا فيما سبق أن العرب المستقرين فى الساحل ظلوا طيلة العصور الوسطى يمارسون نشاطهم التجارى فى جزر ومدن الساحل، دون أن يتجهوا بأبصارهم الى داخل القارة والتوغل فيها • ومن الاسباب التى دفعتهم الى ذلك أن الحياة على الساحل كانت أيسر وأوفر أمنالهم، كما أن طبيعة العرب المستقرين وتفكيرهم وشعورهم بانتمائهم العربى ، جعلهم يتطلعون دوما – عبر البحر – الى أوطانهم الاصلية فى شبه الجزيرة العربية، نظرا للروابط العائلية والتجارية التى تربطهم بها، هذا وقد حالت الموانع الطبيعية دون

---

(١٨) Fitzgerald, Africa, pp. 122 — 123.

(١٩) Morgan, op. cit., p. 168.

(٢٠) Knappert, Swahili Islamic Poetry, Vol. I, p.4.

نزوح العرب الى داخل القارة، لان الارض تأخذ فى الارتفاع بشدة (٢١) • وان كان هذا لا ينفى أن العرب كانوا على دراية تامة بمسالك المناطق الداخلية وقبائلها وسلعها العديدة (٢٢) • ذلك أن مدينة كلوة فى العصور الوسطى كانت تقع على احدى نهايات طرق القوافل القديمة التى يربط بينها وبين منطقة البحيرات العظمى، ومن المرجح الى أبعد من ذلك، ومع أن المؤرخين لم يقفوا على تفاصيل العلاقة بين الساحل والداخل حتى الآن، فقد أثبتت الحفريات الاثرية، أن شعوبا على قدر من التدين والمهارة فى استخدام الحجارة وممارسة الزراعة على سفوح الجبال وبناء المساكن وصناعة الحديد قد عاشت فيما يلى الشريط الساحلى من الصومال الى موزمبيق، هذه الشعوب على الارجح من «الزنج» الذين كانوا يجلبون سلعهم الى المناطق الساحلية (٢٣) •

وبرغم أن الكتاب الاوربيين أجمعوا على أن التجار العرب لم يتوغلوا فى داخل القارة فى القرن التاسع عشر، وأن تأثيرهم فى نشر الاسلام كان ضئيلا، بحجة أن النشاط التجارى كان مستوليا أساسا على تفكيرهم وأسلوب حياتهم، فان هذا لاينفى الحقيقة التى تؤكد وصول الاسلام الى قلب أفريقية قبل القرن التاسع عشر بكثير • اذ كان من نتائج الغزو البرتغالى للساحل فى أواخر العصور الوسطى ، أن ترك المسلمون مناطق الساحل أمام تزايد هجمات المعتدين، ولجأوا الى الداخل حيث اختلطوا بالقبائل الداخلية ونشروا الاسلام بينها (٢٤) •

المذاهب الاسلاميـــة فى الساحل

رأينا أن ساحل شرق أفريقية فى العصور الوسطى ارتبط بروابط متينة بالعالم الاسلامى والعربى، لاسيما بعمان الواقعة فى الجنوب الشرقى من شبه جزيرة العرب • وكان من شأن تلك الروابط أن تطبع مدن الساحل بمعالم تعكس الصورة المذهبية التى كان عليها المسلمون آنذاك • وهذا يعنى أن تلك المدن

---

(٢١) صلاح العقاد ، جمال زكريا قاسم : زنجبار ، ص ١٥ •

(٢٢) أحمد نجم الدين : أفريقيا جنوبى الصحراء ، ص ١٤٥ •

(٢٣) باسيل دافيدسون : المرجع السابق، ص ٩٠ •

(٢٤) محمد محمد أمين : المرجع السابق، ص ٥٢ •

صارت مراكز التقاء لمعظم المذاهب والفرق التى عرفها التاريخ الاسلامى، مثل الاباضية والزيدية والاسماعيلية وغيرها (٢٥) • وقد جاءت الاباضية الى الساحل مع العمانيين، خاصة بعد أن نقل السيد سعيد مقر نفوذه الى زنجبار فى سنة ١٧٤٩م، وسيطر على معظم مدن الساحل • غير أن المذهب الاباضى فى الواقع بقى مذهب الاسرة الحاكمة، ولم يكتب له الانتشار بين الافارقة أنفسهم (٢٦) • ومن المعروف أن أهل عمان كانوا على المذهب الاباضى، نسبة الى عبد الله بن اباض التميمى، أشهر فرق الخوارج التى ظهرت فى النصف الاول من القرن الاول للهجرة • ولما قامت الدولة العباسية ثار الخوارج عليها، اذ نظروا الى العباسيين نظرتهم لخلفاء بنى أمية، كلهم لايصلح للخلافة، وحاربوهم فى قوة وصلابة • ولم يكد السفاح يستقر فى خلافته حتى تحرك خوارج عمان، وعلى رأسهم الجلندى، وكان هو وأتباعه من الخوارج الاباضية، فأرسل السفاح اليهم جيشا بقيادة خازم بن خزيمة، سار فى البحر حتى نزل على ساحل عمان، ثم حدثت الحرب بينه وبين الجلندى، كانت الحرب فيه سجالا، ولم يلبث بعض أتباع خازم أن أشاروا اليه أن يأمر جنوده فيجعلوا على أطراف أسنتهم المشاقة ويرووها بالنفط، ويشعلوا فيها النيران، ثم يرموها فى بيوت أصحاب الجلندى، وكانت من خشب، فلما أضرمت بيوتهم بالنيران اشتغلوا بها وبمن فيها من ذويهم، فأعمل فيهم خازم وأتباعه القتل، ولقى الجلندى مصرعه، وبلغ عدد القتلى نحو عشرة آلاف، وكان ذلك سنة ١٣٤ هـ (٧٥١م) (٢٧)• ومن المرجح أن كثيرا من اباضية عمان قد فروا عقب تلك المعركة الى ساحل شرق أفريقية طلبا للنجاة ، بعيدا عن سطوة العباسية • ومما يذكر أن الاباضية أبدت تسامحا كبيرا فى شرق أفريقية مع المذاهب المخالفة لها فى الساحل، وفى هذا الصدد يؤكد الاستاذ بيرتون أنه فى عهد السيد

---

(٢٥) Trimingham, The Influence of Islam, p. 58, 79.

(٢٦) Ibid., p. 31.

(٢٧) الطبرى : تاريخ الامم والملوك ، حـ٧ ص ص ٤٦٢ ــ ٤٦٣ •
ابن الاثير : الكامل، حـ٥، ص ٤٥١ ــ ٤٥٢،
أحمد أمين : ضحى الاسلام، حـ٣ ص ٣٢٧ ــ ٣٤٠،
السالمى : تحفة الاعيان، حـ١ ص ٧٢ ــ ٧٤ •

سعيد سلطان زنجبار (١٨٠٦ ــ ١٨٥٦) سمح للاثنى عشرية أن ينتحبوا على شهدائهم (٢٨) .

أما الزيدية فقد سبق الاشارة الى أن جماعة منهم نزحت الى الساحل فرارا من الامويين . والزيدية فرقة كبيرة من فرق الشيعة المعتدلة، تتبع زيد ابن على بن الحسين بن على بن أبى طالب ، الذى خرج على الامويين فى العراق سنة ١٢١هـ (٧٣٨م) فى عهد هشام بن عبد الملك، ولكنه قتل فى العام التالى . والزيدية فى تعاليمهم أقرب الى السنة، فلا يقولون بالتقية، ولايقولون بعصمة بعض الائمة، ولايقولون باختفائهم، وهم يرون أن خلافة أبى بكر وعمر صحيحة ، وأن كان على أفضل منهما ، لان امامة المفضول جائزة مع وجود الافضل (٢٩) . ولم يكتب لهذا المذاهب البقاء فى الساحل، شأنه فى ذلك شأن جميع المذاهب التى شهدتها مدن الساحل ، فيما عدا المذهب السنى ، وهو الغالب اليوم على مسلمى الساحل .

ويعتبر المذهب الشافعى أشهر مذاهب السنة انتشارا فى الساحل ، بسبب أن الاسلام الذى دخل مناطق الساحل قدم عليها من جنوب الجزيرة العربية ومنطقة الخليج العربى، ونستطيع القول أن الساحل صار من أتباع المذهب الشافعى فى الفترة الواقعة بين سنة ٨١٣ و ٩٧٥م، ومن المرجح أن جماعة الاحساء أو قبيلة الحارث السنية هى التى جلبت المذهب السنى الى الساحل باعتبارها سنية المذهب ، ومما يؤكد انتشار هذا المذهب فى الساحل ما ذكره ابن بطوطة من أن أهالى مقديشيو وممبسة وكلوة كانوا على المذهب الشافعى فى القرن الثالث عشر الميلادى (٣٠) .

ولكن المذهبية فى ساحل شرق أفريقية تظهر واضحة فى مجتمع الهنود المسلمين، ذلك أنهم ــ كما أشرنا من قبل ــ عاشوا فى مجتمع مغلق عليهم، وفى عزلة عن المجتمع العربى، ولم يختلطوا بالافارقة مثلما فعل العرب . ويلاحظ

Trimingham, Islam in East Africa, p. 81.

والترجمة العربية، ص ١٥٣ ــ ١٥٤ .

(٢٩) ابن شاكر : فوات الوفيات ، جـ٢ ص ٣٥ ــ ٣٨ ، أحمد أمين : المرجع السابق، جـ٣ ص ٢٧١ ــ ٢٧٧ .

(٣٠) Ingrams, Zanzibar, p. 77.

أن هنود الساحل المسلمين ينتسبون الى فرقة الاسماعيلية (٣١) التى لعبت دورا هاما فى تاريخ العالم الاسلامى منذ ظهورها • وكان لضعف الدولة العباسية فى القرن العاشر الميلادى أثر كبير فى انتشار المذهب الاسماعيلى، بفضل دعاته الذين كانوا منبثين فى كل مكان، فوصل نفوذه الى بلاده الشام والعرب واليمن وشمال أفريقية ، فى الوقت الذى كان للاسماعيلية أتباع عديدون فى بلاد فارس والهند • ثم حدث انقسام فى صفوف الاسماعيلية ابان الاحداث التى شهدتها الدولة الفاطمية أيام الوزير الافضل بن بدر الجمالى، الذى انتهز فرصة وفاة الخليفة الفاطمى المستنصر بالله فى عام ٤٨٧هـ (١٠٩٤)، واعلن امامة المستعلى صاحب الحق فى الامامة وحبسه الى أن توفى، الامر الذى ترتب عليه أن عددا كبيرا من أتباع المذهب الاسماعيلى أبى أن يبايع المستعلى، ولم يعترف بامامته، ونادىبامامة نزار وأبنائه من بعده، ومن ثم انقسمت الفرقة الاسماعيلية الى فرقتين : فرقة الاسماعيلية النزارية أو الاسماعيلية الشرقية، وفرقة الاسماعيلية المستعلية أو الاسماعيلية الغربية (٣٢) •

على أن أمر الاسماعيلية المستعلية فى اليمن صار له شأن آخر فى عهد الصليحيين الذين كان لهم رأيا فى الامامة بعد اغتيال الخليفة الفاطمى الآمر سنة ٥٢٤هـ (١١٣٠م)، اذ رفضوا الاعتراف بالحافظ لعدم أحقيته فى الامامة، وزعموا أن احدى زوجات الامام الآمر كانت حاملا ، ثم أنها وضعت طفلا ذكرا اسمه الطيب، اتخذوه اماما، وسميت هذه الفرقة المستعلية الجديدة باسم «الاسماعيلية الطيبية» • ووجه الاهمية هنا أن النشاط التجارى بين اليمن والهند هيأ الفرصة لنشر الدعوة الاسماعيلية الطيبية فى الهند، ولاسيما فى

---

(٣١) المذهب الاسماعيلى نسبة الى اسماعيل بن جعفر الصادق، وقد عرف أنصاره بالاسماعيلية، وهم فرقة من الشيعة ترى أن الامامة انتقلت بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم الى على بن أبى طالب، ثم الى ابنه الحسن، ثم الى أخيه الحسين، ثم فى بنى الحسين الى جعفر الصادق، ويروى أن الامامة انتقلت من جعفر الصادق الى ابنه اسماعيل، ثم تنقلت فى بنيه • أنظر : القلقشندى : صبح الاعشى ،، حـ١ ص ١١٩ ـ ١٢٠ •

(٣٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، حـ ٥.ص ١٤٢ ـ ١٤٣ ، محمد كامل حسين : طائفة الاسماعيلية ، ص ٤١ ـ ٤٢ •

.كوتشى وجوجرات جنوب بومباى، حيث لاقت الدعوة نجاحا كبيرا، وعرف أتباعها بالاسماعيلية البهرة أو البهرة (٣٣) · ويقال أن اصطلاح البهرة مشتق من الكلمة الجوجاراتية فوهورو Vohoru بمعنى التجارة، وان كان هذا الاصطلاح لايقتصر على المسلمين فحسب، بل يستخدمه الهندوس أيضا كدلالة طبقية (٣٤) ·

أما الاسماعيلية النزارية،وهم الفرقة الثانية من الاسماعيلية التى ترى أحقية نزار امامة الاسماعيلية ، فقد كان لها شأن خطير فى فارس والشام والهند · وقد نشر الحسن الصباح (ت ١١٢٤م) صاحب قلعة آلموت فى فارس الدعوة النزارية فى فارس وخراسان، وصار لها نفوذا قويا ظل قائما الى أن ظهرت جيوش المغول فى آسيا، واجتاحت أقاليم العالم الاسلامى ومدنه خلال زحفها· وكانت قلاع الاسماعيلية مما اجتاحتها جيوش المغول، ففى سنة ٦٥٤هـ (١٢٥٦م) دخل هولاكو قلعة آلموت، كما استولى على جميع قلاع وحصون الاسماعيلية، مما أدى الى هجرة العديد من الاسماعيلية، فرارا من أهوال المذابح التى حلت بهم، فتمت هجرتهم الى بادخشان (أعالى نهر جيحون) والى الهند على وجه الخصوص، على حين هاجر البعض منهم الى ساحل أفريقية الشرقى والجنوبى (٣٥) ·

الطرق الصوفية :

من الملاحظ أن جهود الطرق الصوفية فى الدعوة الى الاسلام فى ساحل شرق افريقية وصلت متأخرة، بعد انتشارها فى شبه الجزيرة العربية أولا، الامر الذى يؤكد لنا أن الروابط المتينة بين العرب المقيمين فى الساحل واخوتهم فى شبه الجزيرة العربية ظلت حية على مر الزمن · ويرى الدكتور حسن محمود (٣٦) أن الطرق الصوفية لم تتسرب الى شرق أفريقية قبل القرن الرابع عشر

---

(٣٣) محمد كامل حسين : المرجع السابق، ص ٥١ ــ ٥٢ ·

(٣٤) Hollingsworth, The Asians of East Africa, p. 146.

(٣٥) محمد كامل حسين : المرجع السابق، ص ٨٧ ــ ٩٠، ·
Hollingsworth, op. cit., pp. 136 — 137.

(٣٦) الاسلام والثقافة العربية فى أفريقية، ص ٤٢٨

الميلادى، ذلك أن «العمرى» صاحب كتاب «مسالك الابصار» الذى كتب عن هذه المنطقة، لاحظ أنه ليست بها ربط ولا زوايا ولا خانقاوات • وتعتبر الطريقة القادرية أو الجيلانية أقدم الطرق الصوفية التى انتشرت فى شرق أفريقية بفضل المهاجرين اليمنيين أو الحضارمة ، وكان أهم مراكزها مصوع وزيلع ومقديشيو • وتنتسب تلك الطريقة الى مؤسسها الشيخ عبد القادر الجيلانى (١٠٧٧ – ١١٦٦م)، الذى كان عالما بالاصول والفروع والحديث رواية ودراية، جلس للوعظ أربعين سنة، ومفتيا من سنة ٥٣٦هـ (١١٤١م)، الى أن مات بالعراق (٣٧) • وعلى الرغم من أن الطريقة القادرية أقوى الطرق الصوفية تأثيرا فى شرق أفريقية بوجه عام، فالامر يختلف من مدينة الى أخرى على الساحل، ففى كلوة مثلا نجد الطريقة الشاذلية هى الغالبة، بينما الطريقة القادرية هى السائدة فى مالندى، وفى زنجبار نجد جميع الطرق الصوفية المنتشرة فى شرق أفريقية (٣٨) • ويروى أتباع الطريقة القادرية فى الساحل أنها قدمت أصلا من بروة على الساحل الصومالى على أيدى السيد عمر القللينى المدفون فى ويليزو على بعد أربعة أميال من زنجبار، وفى ذكراه التى يجرى لها احتفالات كبيرة، يرتل المريدون آيات متعددة من القرآن الكريم، ويقضون الليل بطوله فى الذكر، ولهذه الطريقة فروع عديدة فى مناطق متعددة مثل أوجيجى وتابورة وغيرها (٣٩) • وتتميز هذه الطريقة بأنها أكثر الطرق ثقافة وتمدنا فى الساحل، وأفرادها لا يميلون الى احتراف الزراعة أو الصناعة وانما يقومون بمهنة التعليم (٤٠) •

ومن الطرق التى انتشرت فى زنجبار وبعض المناطق الساحلية فى العصور الوسطى الطريقة الرفاعية، وهى الطريقة الوحيدة التى تسمح بالطبول واستعمالها، كما ينشد مريدوها قصائد كثيرة باللغة السواحيلية أكثر من أية

---

(٣٧) محمد أبو زهرة : الدعوة الى الاسلام ، ص ١١٧ – ١١٨ •

(٣٨) Trimingham, op. cit., pp. 97 — 98;
والترجمة العربية، ص ١٧٢، ص ١٧٧ – ١٧٨

(٣٩) Trimingham, op. cit., pp. 99 — 100;
والترجمة العربية، ص ١٨١

(٤٠) عبد المجيد عابدين : بين الحبشة والعرب، ص٢٤٥ – ٢٤٦

طريقة أخرى، ويمارس أتباعها بعض الاعمال الخاصة بطريقتهم، فيغرسون آلات حادة فى أجسامهم ، ويبتلعون النار ، ويروضون الثعابين(٤١)٠ومن الطرق الصوفية التى وجدت طريقها الى زنجبار، الطريقة العلوية التى أسسها محمد ابن على بن محمد (ت١٢٥٥م) ، ولها شعبتان هما العيدروسية التى أنشأها الشريف أبو بكر بن عبد الله العيدروس المتوفى فى عدن سنة ١٥٠٩، والحدادية التى أنشأها عبد الله بن علوى بن أحمد الحداد (ت ١٧٢٠م) (٤٢) ٠

وعلى آية حال، وفدت طرق صوفية عديدة الى الساحل فى العصور الوسطى، ساهم شيوخها فى الدعوة الى الاسلام بين الافارقة، ويرجع الى أولئك الشيوخ الفضل فى الحفاظ على اللغة العربية لغة القرآن الكريم، واقامة المساجد، فى وقت كان مسلمو الساحل أشد حاجة لمن يشد بأزرهم، خاصة بعد الاضطهاد الذى لقوه على أيدى البرتغاليين فى أواخر العصور الوسطى ٠

تجارة الرقيق فى الساحل :

نادى الاسلام بمحاربة النخاسة تمشيا مع تعاليمه السامية، وعمل على الغائها تدريجيا، اذ لم يكن من السهل تحريمها دفعة واحدة، لما يترتب على ذلك من هدم لكيان المجتمع فى أنشطته الاقتصادية المتوارثة، فى الوقت الذى حبب الاسلام عتق الرقاب ابتغاء مرضاة الله، قال تعالى : «ألم نجعل له عينين ولسانا وشفتين وهديناه النجـــدين ٠ فلا اقتحم العقبة ، وما أدراك العقبة ، فك رقبة، أو اطعام فى يوم ذى مسغبة، يتيما ذا مقربة، أو مسكينا ذا متربة (٤٣) » ٠ كما عنى الاسلام بالرقيق عناية كبيرة، وحذر من اساءة معاملتهم وتحقيرهم، قال تعالى : «واعبدوا الله لا تشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وماملكت أيمانكم، ان الله لا يحب من كان مختالا فخورا » ٠ (٤٤) ٠

---

(٤١) Trimingham, Islam in East Africa, p. 101.

(٤٢) Ibid., p. 102.

والترجمة العربية، ص ١٨٣ – ١٨٦

(٤٣) سورة البلد ٩٠ : ٨ – ١٦

(٤٤) سورة النساء ٤ : ٣٦

تلك هى تعاليم السلام الواجبة التى سار المسلمون والتجار العرب على هداها تجاه الرق، ولكن الاوربيين درجوا فى دعايتهم على أن التجار العرب العرب كانوا حجر الزاوية فى تجارة الرقيق العالمية، وحاول كتابهم القـاء مسئوليتها عليهم ، زاعمين أنهم كانوا أقدم من مارسها فى ساحل شرق أفريقية، فى حين أن دور الاوربيين لم يبدأ الا فى غرب أفريقية منذ بداية القرن السادس عشر الميلادى • ومن الطبيعى أن تلك المقارنة خاطئة الى أبعد حد ، فالاوربيون– كما سنرى – هم وحدهم الذين أعطوا تجارة الرقيق قوتها الدافعة الكبرى فى تاريخ الانسانية، حتى وصل الامر الى تناقص عدد سكان القارة الافريقية، وصارت أقل القارات سكانا بالنسبة لمساحتها •

واذا ألقينا نظرة على الطريقة التى كان يجلب بها الرقيق من الساحل، نلاحظ أنها اقتصرت على ما كانت تقدمه المدن المغلوبة عوضا عن الجزية المفروضة عليها، أو بطريق الشراء، ويؤكد ذلك ماروا‌ه ابن الوردى (٤٥) من أن الزنج أنفسهم كانوا يقصدون ميناء سفالة، ليبيعوا أولادهم وزوجاتهم لتجار عمان مقابل التمر والخرز والملح • وعلى هذا النحو، وقف دور التجار العرب عند حد التبادل التجارى ، فلم يشتركوا فى الاغارة على السكان الآمنين فى القرى والغابات ، وهى عملية كان ينفذها رجال متخصصون مهمتهم صيد العبيد، ثم تسليمهم الى الرؤساء المحليين أو الى وكلاء التجار (٤٦) • أما فى الجانب الغربى من القارة، فقد أعطانا السير أرنولد هدسون صورة مغايرة لما كان عليه الحال فى جانبها الغربى • ذلك أن المغيرين من صيادى العبيد كانوا يحكمون الالتفات حول قرية معينة فى الليل الدامس، دون أن ينتبه سكانها الآمنون لما تخبئه لهم الاقدار • ولايلبث أولئك المغيرون أن ينفخوا فى الابواق فجأة، ويطلقون صرخات وحشية لحمل الاهالى على الخروج من أكواخهم المشيدة من الاغصان،فى الوقت الذى يضرمون النار فى تلك الاكواخ،فيضطر الاهالى الى الفرار مذعورين من الاصوات وألسنة اللهب • وعندئذ يقوم

---

(٤٥) خريدة العجائب ، ص ٤٩ – ٥٠ •

(٤٦) تريمنجهام : الاسلام فى شرق أفريقية ، ترجمة محمد عاطف النواوى ، ص ٦٠ •

المغيرون برمى الطاعنين فى السن من الرجال والنساء بالحراب، واطلاق رصاص البنادق عليهم، أما الاطفال والفتيان والفتيات الذين يجرون دون وعى منهم هنا وهناك من هول المفاجأة، فهم الصيد الثمين الذى يحرص المُغيرون على اقتناصه بطريق الاسر (٤٧) ، ومن ثم تبدأ رحلة العودة الشاقة الى أوربا ·

وكيفما كان الامر، فمنذ اللحظة الاولى التى يصير فيها الرقيق المجلوب الى الساحل فى حوزة التجار العرب، كان يجرى تصديره من موانى كلوة وزنجبار وغيرها، فيما عدا المنطقة الواقعة حول رأس جاردافوى وشماله، التى يسكنها الصوماليين، باعتبارهم أحرار لم يقع عليهم الاسترقاق · وفى خلال الرحلة البحرية الطويلة، كان الرقيق يلقى الرعاية، وينعم بالمعاملة الطيبة التى نادت بها تعاليم الاسلام، وليس ثمة دليل يوضح ذلك أبلغ مما كتبه المقيم البريطانى فى الخليج العربى سنة ١٨٤٤م حول تجارة الرقيق، بقوله : «ان معاملة الارقاء الافارقة فى أى وقت من الاوقات، كانت بعيدة تماما عن الشدة والقسوة، فهم لايكبلون بالاصفاد خلال الرحلة البحرية الطويلة، ولاتفرض عليهم رقابة، ويقدم لهم الطعام بكميات وافرة، تشمل الارز والتمر والسمك، كما يرتدون قماشا خشنا يلفونه على وسط أجسادهم، ويكفى أن نشير الى أنه منذ اللحظة التى يتم فيها شراؤهم يتحسن وضعهم (٤٨) »·وفى نهاية المطاف يجد الرقيق نفسه ، بعد اتمام اجراءات بيعه الأخيرة فى مسقط أو صور ، كغواص على اللؤلؤ فى مياه عمان الخضراء ، وفى منازل السادة العرب ، وكخادم لتاجر فارسى ، على حين يسلك بعض الأرقاء طريقهم الى البصرة ليجرى بيعهم هناك (٤٩) · وكان الأرقاء يعرضون للبيع أيضا فى أسواق الرقيق فى بغداد وغيرها من المدن الكبرى ، الى جانب السبايا البيض ، ليكونوا تشيكلة بديعة فى قصور الخلفاء والولاة والمترفين الأثرياء · وهنا نلاحظ أن الاقبال على تجارة الرقيق لم يقف عند حد الطبقات العليا من المجتمع الاسلامى

---

(٤٧) Macmun, Slavery through the Ages, pp. 153 — 154

(٤٨) Wilson, Persian Gulf, pp. 226 — 227

(٤٩) Wilson, op. cit., pp. 215 — 216, Bohannan & Curtin, Africa & Africans, p. 268.

بل غدت من مقتضيات الطبقتين الوسطى والدنيا ، نتيجة لرواج الحركة الملاحية الواسعة التى سهلت تلك التجارة وجعلتها فى متناول الجميع ، خاصة فى عصر الدولة العباسية الثـانى (٥٠) (٨٤٧ ـ ١٠٥٥ م) • هـذا وليس كل من وقعوا فى أصفاد العبودية كانوا عبيدا ، بل لان عددا كبيرا منهم صاوروا جنودا ، ذلك أنه لما ثار أهالى الموصل على الخلافة العباسية ابان السنوات الأولى من قيامها ، أرسل أبو العباس السفاح أخاه لرد تلك الثورة ، وكان فى جنده أربعة آلاف زنجى من زنجبار (٥١) • كذلك كان بين جند الخليفـة العباسى هارون الرشيد أربعمائة جندى من أهالى شرق أفريقية (٥٢) • وكان الجيش الديلمى (البويهى) الذى كان تحت امرة نايب عمر بن بنهـان الطائى فى عمان ، يتألف من نسبة كبيرة من الزنوج تصل الى بضعة آلاف ، على غرار جيوش الخلافة العباسية فى القرن العاشر الميلادى ، وهؤلاء الزنوج كانوا يجلبون من ساحل شرق أفريقية (٥٣) •

على أن القسم الأكبر من زنوج شرق أفريقية الذين اتصفوا بقوة البنية وتحمل الأعمال الشاقة ، عملوا على شكل جماعات فى منطقة البصرة فى أراضى كبار الملاك ، ووقع عليهم عبء تجفيف المستنقعات فى المنطقة المحصورة بين النهر ، وازالة الطبقة الملحية والوصول الى التربة الخالية من الأملاح ، التى تصير بعد ازاحة هذه الطبقة عنها صالحة للزراعة ، وقد كان كسح الملح عملاشاقا لا يستطيع القيام به الا الزنج ، الذين وقع عليهم عبء نقله بواسطة البغال الى حيث يعرض ويباع ، ويدر ربحا (٥٤) • وعلاوة على ذلك ، كان الزنج يعملون فى استخراج الدبس من التمر فى منطقة البصرة المعروفة بنخيلهـا وتمورها • وكان من نتائج الأعمال الشاقة التى مارسها الزنج فى البصرة أن صارت أحوالهم المعيشية بالغة السوء ، فطعامهم لم يكن ليشبع ، كما أنهم كانوا عرضة للامراض الفتاكة ، اذ عاشوا فى منطقة مليئة بالمستنقعات والبرك

---

(٥٠) قدرى قلعجى : الخليج العربى ، ص ٢٦٨ ـ ٢٦٩ •

(٥١) ابن الاثير : الكامل، حـ٥، ص ٤٤٣ ـ ٤٤٤

(٥٢) تريمنجهام : الاسلام فى شرق أفريقية ، مقدمة العرب ، ص ٢٧ ـ ٢٨

(٥٣) Miles, Country and Tribes of the Persian Gulf, p. 116.

(٥٤) أحمد علبى : ثورة الزنج، ص ٧٨ ـ ٨٠، قدرى قلعجى : الخليج العربى، ص ٢٦٩ ـ ٢٧٠، عبده بدوى : السود والحضارة العربية، ص ٢٠٥

والأنهار ، وهذا يعنى أن الرطوبة وشدة الحرارة والأوبئة والقذارة كانت مرتعا خصيبا لهم ، والى جانب تلك العوامل المادية المرهقة ، كانت هناك عوامل نفسية شديدة الوطأة على الزنج (٥٥) • فقد كانوا منبوذين من المجتمع ، ومنكبين على أحزانهم ، لا يتزوجون من خارج دائرتهم السوداء ، وبعضهم كان يمنع من الزواج ، فى الوقت الذى كان عامتهم لا يفهمون اللغة العربية ، وانقطعت صلتهم بالأماكن التى جلبوا منها وبخاصة شرق أفريقية (٥٦) • وما لبثت الأوضاع السيئة التى عاشها الزنج أن أدت بهم الى التمرد والعصيان ضد الدولة العباسية ، وقاموا بثورتهم المعروفة بحركة الزنج ، تزعمها على ابن محمد فى البصرة سنة ٢٥٥هـ (٨٦٨م) ، ودامت أكثر من أربع عشرة سنة ، ذلك أنه انتهز فرصة ضعف تلك الدولة ، وادعى أنه من ذرية على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب ، ووعد الزنج بتخليصهم مما هم فيه ، فلبوا دعوته ، وجند منهم جيشا حارب به العباسيين ، ولكنه قضى على ثورته فى سنة ٢٧٠ هـ (٨٨٣ م) ، وما ت عدد كبير من الزنج (٥٧) • ويرى البعض أن لثورة الزنج قيمة خاصة فى التاريخ الاسلامى ، ذلك أنها تلقى ضوءا قويا وعميقا على طبيعة العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، بل والفكرية فى العصر العباسى الثانى ، حيث كان المجتمع العباسى قد غدا مجتمعا مريضا (٥٨) • وهنا نلاحظ أن تلك الثورة كانت محلية ، لم تتعد بلاد العراق ، وان كانت فى الحقيقة أحد الأسباب الرئيسية لاضمحلال الدولة العباسية وتفككها • فقد ترتب على تلك الثورة أن تعطلت الزراعة وأرهق الناس ارهاقا شديدا بتقديم المؤن لكل من الفريقين المتصارعين ، مما أدى الى هجرة بعضهم تماما من المنطقة من ناحية ، وتعطيل الملاحة النهرية فى الداخل ، والملاحة الخارجية مع الهند وسيلان وسومطرة والصين وأفريقية من ناحية أخرى (٥٩) •

---

(٥٥) أحمد علبى : المرجع السابق ، ص ٨٠ ـ ٨٢ •
(٦٦) عبده بدوى : المرجع السابق ، ص ٢٠٥ •
(٥٦) عبده بدوى : المرجع السابق ، ص ٢٠٥ •
(٥٧) الطبرى : نفس المصدر ، حـ ٩ ، ص ٦٥٤ ـ ٦٦١ ، ابن الأثير الكامل ، حـ٧ ص ٤٠٥ •
ابن كثير : البداية والنهاية ، حـ١١ ص ١٨ ـ ١٩ ، ص ٣٠ ـ ٣١
(٥٨) عبده بدوى : المرجع السابق ، ص ٢٠٢ •
(٥٩) عبده بدوى : المرجع السابق ، ص ٢٢٨ •

ومن الحركات التى قام بها الزنج فى الدولة العباسية ولا نعلم سببا لها تلك التى أضرموا نارها فى عمان سنة ٣٦٢ هـ (٩٧٢ م) ، ويروى ابن الأثير (٦٠) أحداث تلك الحركة قائلا : « لما توفى معز الدولة وبعمان أبو الفرج بن العباس نائب معز الدولة فارقها ، فتولى أمرها عمر بن نبهان الطائى ، وأقام الدعوة لعضد الدولة ، ثم الزنج غلبت على البلد ومعهم طوائف من الجند وقتلوا ابن نبهان ، وأمروا عليهم انسانا يعرف بابن حلاج ، فسير عضد الدولة جيشا من كرمان ، واستعمل عليهم أبا حرب طغان ، فساروا فى البحر الى عمان ، فخرج أبو حرب من المراكب الى البر ، وسارت المراكب فى البحر من ذلك المكان ، فتوافدوا على صحار قصبة عمان ، فخرج اليهم الجند والزنج ، واقتتلوا قتالا شديدا فى البر والبحر ، فظفر أبو حرب واستولى على صحار وانهزم أهلها ، وكان ذلك سنة اثنتين وستين • ثم ان الزنج اجتمعوا الى بريم ، وهورستاق بينه وبين صحار مرحلتان ، فسار اليهم أبو حرب ، فأوقع بهم وقعة أتت عليهم قتلا وأسرا ، فاطمأنت البلاد » •

على أن تلك الحركات لم تقلل من شأن المعاملة الانسانية التى لقيها الرقيق فى أنحاء من العالم الاسلامى ، ففى هذا العالم لم يسترق الرقيق طوال حياته ، فاذا بلغ سنا معينة أعتق وصار يعيش كما يعيش أى فرد حر • وفى ظل الشريعة الاسلامية عاش الرقيق لا فرق بينه وبين مولاه فى الطعام والشراب والتعليم والتهذيب ، وجرت المحافظة عليه وعلى أولاده • وفى هذا الصدد أشار الأستاذ ويلسون الى العناية التى يلقاها الرقيق فى العالم الاسلامى ، فحياته فى شبه جزيرة العرب رغم أنها كانت قاسية ، الا أنها على وجه التأكيد لم تكن أقسى من حياة العربى العادى ، كما كانت أقل مشقة من حياة الأفريقى بين قبيلته فى موطنه الأصلى • وأضاف بقوله ان الأرقاء فى العادة كانوا يبلغون مكانة رفيعة من الثقة فى قلوب سادتهم العرب ، وكانت الفرصة مهيئة أمامهم لاعتاقهم طبقا لأحكام الشريعة الاسلامية ، ففى

---

(٦٠) الكامل فى التاريخ ، حـ ٨ ص ٦٤٦ •

كل عام كان كثير منهم يحصلون على حريتهم ابتغاء مرضاة الله ، ويعيشون فى نعمة المساواة والاخاء ، وبسبب قوة بنيتهم وشجاعتهم وأمانتهم ضمنوا احترام جيرانهم من جهة ، وفرص التقدم فى المجتمع من جهة أخرى (٦١) .

والحقيقة أن تجارة الرقيق شهدت نشاطا واسع النطاق منذ أن وطئت أقدام الأوربيين أرض القارة الأفريقية . فقد كان قدوم البرتغاليين الى مناطق القارة فرصة ثمينة للحصول على ثرواتها ، ولم يكن لقدومهم وغزواتهم من نتيجة سوى أنهم حطموا فى فترة وجيزة ما نسجته عشرات القرون من الصلات التجارية القائمة ، وعندما حطموا مدن الساحل الأفريقى المزدهرة فى بربرية ووحشية ، وضربوا بمدافعهم مراكز التجارة الساحلية هناك ، كان ذلك نذيرا بأنهم فقدوا أول مصدر من مصادر الثروة التى أندفعوا من أجلها الى أفريقية ، وعندئذ فكروا فى أن يعوضوا هذه الخسارة بذهب الداخل ، ولكنهم فشلوا فى تحقيق ذلك أيضا ، ومن ثم لم يجدوا وسيلة لتحقيق الثروة التى جاءوا من أجلها الا أن يمارسوا تجارة العبيد التى وصمتهم بالخزى والعار (٦٢) . وكانت هذه التجارة استنزافا لحيوية سكان أفريقية ، اذ اختلفت تماما عن مجرد اخضاع شعوب مغلوبة على أمرها ، حتى أنها كانت أسوأ تأثيرا من الموت الأسود الذى يقال أنه قضى على ثلث سكان أوربا فى العصور الوسطى (٦٣) . وقد لجأ البرتغاليون فى سبيل الحصول على الرقيق الى وسائل شتى ، اتخذت صفة الحروب وما تبع ذلك من تخريب ، بل وصل الأمر بالبرتغاليين الى أنهم كانوا يستخدمون مجرميهم لتحريض السكان الأصليين لمحاربة بعضهم البعض ، وذلك لصلحتهم فى سوق العبيد (٦٤) . ومما يدعو للدهشة أعتقاد بعض الكتاب الأوربيين أن البرتغال قامت بعمل عظيم هو ممارستها تجارة الرقيق فى سواحل أفريقية ، ذلك أن القسس كانوا يعمدون كل رجل وامرأة وطفل قبل وضعه فى الاغلال وقبل ركوب السفن ،

---

(٦١) Wilson, op. cit., p. 214.

(٦٢) باسيل دافيدسون : افريقية تكتشف من جديد ، ص ١٢٦ .

(٦٣) المرجع السابق ، ص ٥٨ .

(٦٤) رولاند أوليفر ، جون ليج : تاريخ افريقيا ، ترجمة د. عقيلة محمد رمضان ، مراجعة أحمد صوار ، ص ٥٤ ــ ٥٥ .

حتى تجد أرواحهم الخلاص عند موتهم فى البحر ، وكسبت الكنيسة من وراء ذلك مبالغ طائلة ، (٦٥) لأنها كانت تتقاضى ضريبة تعميد على كل فرد ، مع اعفاء الاطفال الرضع من الضريبة !٠ومما يؤسف له أن الاوربيين لم يشعروا بوخز الضمير حول أخلاقية الاسترقاق ، اذ تقبل معظم علماء اللاهوت والشخصيات المسئولة الحجة التى ساقها تجار الرقيق ، بأن الافارقة أفضل حالا فى ظل الاشراف المسيحى منهم عند الوثنيين أو المسلمين من أصحاب الرقيق (٦٦) ٠ ووصل الأمر الى حد أن الكنيسة الأوربية اعتبرت تجارة الرقيق تجارة مشرفة ، فلم تعترض عليها ، بل بررتها بمقتضى نصوص من العهد القديم ، وبضرورة تنصير الوثنيين (٦٧) ٠

---

(٦٥) درك كارتن : افريقيا ٠ افريقيا قارة تقف على قدميها ، ترجمة أحمد فؤاد بلبع ، مراجعة حسن لطفى المنفلوطى ، ص ٢٤ ٠

(٦٦) دونالد ويدنر : تاريخ أفريقيا جنوبى الصحراء ، ترجمة على أحمد فخرى ، د٠ شوقى عطا الله الجمل ، ص ٧٧ ٠

(٦٧) جوليان : تاريخ أفريقية ، ص ٩٩ ــ ١٠٠ ٠

الفصـــل الثالث

ذيول الحروب الصليبية فى ساحل شرق أفريقية
(الغـــزو البرتغـــالى)

- وصول فاسكودى جاما الى ساحل شرق افريقية •
- الحملات البرتغالية الى الساحل فى بداية القرن السادس عشر •

رأينا ماكان من قيام عدد من المدن الاسلامية على طول الساحل الشرقى لأفريقية ، غلب عليها الطابع العربى ، وكان لها الفضل فى ازدهار أحوال السكان وارتفاع مستواهم الثقافى والخلقى . فكانت كلوة تسيطر على موانى الجنوب وتجارته بعد أن أبعدت مقديشيو عن سيطرتها على سفالة حيث كان يصدر الذهب ، وشاركت ممبسة ومالندى وغيرها من المدن الكبيرة فى تلك التجارة ، وفى الشمال أصبحت بات تحت حكم أسرة نبهان قوة كبرى . أما الجزر الكبيرة زنجبار وبمبا ومجموعة جزر مافيا ، فقد ارتبط نشاطها بالزراعة لخصوبة أراضيها ، فعلى سبيل المثال كان الأرز وأشجار جوز الهند من المحاصيل الهامة فى بمبا . وبين المدن الكبيرة امتد عدد كبير من القرى الساحلية الصالحة لصيد الأسماك والزراعة . وعلى أية حال ، عاشت المدن الساحلية فى العصور الوسطى تزاول نشاطها التجارى ، وتساهم فى نشر الاسلام والثقافة العربية ، الى أن دهمها الغزو البرتغالى فى أواخر العصور الوسطى ، فغير معالم تاريخها تماما . وهنا نلاحظ أن تلك المدن تباينت علاقاتها بين التحالف والعداء ، اذ أخذ كل حاكم يدافع عن استقلال مدينته السياسى والاقتصادى ، مما حال دون قيام دوله موحدة قوية أو وحدة سياسية تامة فى المنطقة ، واقتصر الأمر على التوسع الذى كانت تفرضه أحيانا بعض المدن القوية على جيرانها ، ولهذا عندما أتى البرتغاليون من جنوب الساحل قبل أن يشرف القرن الخامس عشر الميلادى على نهايته ، استغلوا الخلافات القائمة بين هذه المدن بعضها والبعض الآخر لصالحهم . (١)

والواقع أننا لانعرف المدى الذى وصلت اليه معلومات البرتغال عن شرق أفريقية والمحيط الهندى فى القرن الخامس عشر ، فيما عدا خريطة فراماورو كامولديس Fra Mauro Camoldese التى وضعها للأمير هنرى الملاح فى البندقية فى عام ١٤٦٠ م ، اذ كانت أول خريطة حقيقية ظهرت

Oliver & Mathew (Edit.), History of East Africa, Vol. I, Chapter V, The Coast of 1498 — 1840 by Freeman — Grenville, pp. 132 — 133;

جيمس دفى : الاستعمار البرتغالى فى أفريقية ، ترجمة الدسوقى حسنين المراكبى ، ص ٨٠ ـ ٩٠ .

عليها مدينة سفالة وعدد من الأماكن الأخرى على الساحل (٢) • ولاشك أن ظهور سفالة فى خرائط أوربا العصور الوسطى يأتى دليلا على شهرتها وعظمتها •

وبداية ارتبط وصول البرتغاليين الى ساحل شرق أفريقية بالأحداث التى جرت فى دولة المسلمين بالأندلس • ففى خلال تلك الأحداث ولدت دولة البرتغال ، التى استطاعت عقب الهزيمة الساحقة التى لحقت بالموحدين فى موقعة العقاب الشهيرة سنة ١٢١٢ م وماتبـــع ذلك من انهيـــار نفوذهـــا بالأندلس ، أن تقضى فى أقل من قرن على القواعد الاسلامية فى ولاية الغرب الأندلسية ، حتى أنه لم يأت منتصف القـرن الثالث عشـر ، الا وكانت البرتغال قد قضت نهائيا على المسلمين فى القسم الغربى من شبه الجزيرة الأيبيرية ، وأخذت توطد قواها وتتأهب للمشارع الاستعمارية ، فى حـين استمرت جارتها الكبيرة أسبانيا المسيحية مدة قرنين آخـرين فى صراع مع أسبانيا المسلمة ، ولم تفرغ منه الا فى أواخـر القـرن الخامس عشـر (١٤٩٢ م) (٣) • وهنا نلاحظ أن العوامل الجغرافية لعبت دورا هاما فى ظهور دولة البرتغال الصغيرة وارتفاع شأنهـا • فبحكـم موقعها امتلكت حدودا ساحلية طويلة على المحيط الأطلسى ، بلغت حـوالى ثلاثمائة ميـل ، فى الوقت الذى وقفت سلسة الجبال التى تفصلها عن أسبانيا عقبة كأداء فى سبيل تحقيق مشاريعها التوسعية فى شبة الجزيزة الأيبيرية ، ولما كانت موانيها العميقة صالحة لرسو السفن ، فضلا عن مهارة أهلها فى الملاحة ، لم يكن أمامها الا الاتجاه نحو البحر (٤) لبناء مستقبلها السياسى • ويمكن القول أن ثمة عاملين هامين دفعا البرتغال الى الاتجاه صوب الغرب ، هما العامل الدينى والعامل الاقتصادى ، ويتمثل العـامل الدينى فى احتـــدام الصراع بين المسيحيين والمسلمين فى أسبانيا ، فى حين يرجع العامل الاقتصادى الى قلة موارد البرتغال وفقرها ، واذا كانت الزراعة فى حد ذاتها مصـدر

---

(٢) Oliver & Mathew, op. cit., p. 133;
باسيل دافيدسون : افريقية تكتشف من جديد ، ص ٤٠ •

(٣) محمد عبد الله عنان : مواقف حاسمة فى تاريخ الاسلام ، ص ٣٠٣ •

(٤) Sykes, Hist. of Exploration, pp. 97 — 98; Davis, Exploring the World, p. 61.

الدخل الرئيسى للبرتغال ، الا أنه كان من المتعذر فلاحتها لما كانت تعانيه البرتغال من نقص مستمر فى الأيدى العاملة ، ولذلك أصدر الملك فرديناند مرسوما فى ٢٦ مايو سنة ١٣٧٥ م ، أوجب على الملاك الزراعيين ان يفلحوا أرضهم والا تعرضوا لعقوبات قاسية (٥) •

ويعتبر عهد الملك يوحنا الأول (١٣٨٣ – ١٤٣٣) نقطة تحول هامة فى تاريخ البرتغال ، [illegible] فى الداخل والخارج فحسب ، بل ايضا لان البرتغال [illegible] الغربية . وهى الحركة التى عادت عليها بالثروة الطائلة والشهرة الواسعة(٦) وكان [illegible] الاول [illegible] بطبيعته ، [illegible] ذلك [illegible] عن خطاياه [illegible] » ، ولم تقل زوجته الثانية تعصبا عنه ، اذ [illegible] الحقد والكراهية للمسلمين الذين [illegible] الجزيرة الايبيرية [illegible] البحار المحيطة بها [illegible] ، وفى تلك المرحلة التى سيطرت عليها روح التعصب الدينى ، ولدت فكرة ارسال حملة صليبية لغزو مدينة سبتة (٧) •

والواقع أنه منذ بداية القرن الخامس عشر ، كان الهدف الرئيسى لسياسة البرتغال التوسعية ، هو البحث عن وسيلة للوصول الى الأسواق الشرقية والسيطرة على ثرواتها من جهة ، والاطباق على العالم الاسلامى جهة أخرى • وهذا يعنى أن الدافع الصليبى والمصالح الاقتصادية سارا جنبا الى جنب ، أو أن المصالح الاقتصادية فى حقيقة أمرها كانت وسيلة لغاية أبعد منها ، وهى احياء الحروب الصليبية • صحيح أن تلك الحروب التى تمثل أحد مظاهر الصراع بين الشرق الاسلامى والغرب المسيحى فى العصور الوسطى ، قد انتهت بمعناها المحدود الضيق بنهاية القرن الثالث عشر ، ولكن ذيولها امتدت الى القرنين الرابع والخامس عشر • ومما يؤيد ذلك روح التعصب التى سيطرت على أوربا خلال حرب الاسترداد التى شنتها اسبانيا المسيحية ضد المسلمين فى الأندلس ، وامتدت الى المغرب

---

(٥) Da Silva Rego, Portuguese in Sixteenth Century, p. 9.

(٦) سعيد عاشور : أوربا فى العصور الوسطى ، حـ ١ ص ٥٥٨ •

(٧) Prestage, The Portuguese Pioneers, p. 17.

العربى • فقد نجح الأسبان فى الاستيلاء على بعض أجزاء من ساحل الجزائر وتونس ، فى حين احتل البرتغاليون أجزاء من الساحل المغربى المطل على المحيط الأطلنطى (٨) •

والجدير بالذكر أن فكرة الحروب الصليبية فى القرن الخامس عشر قد تطورت ، فبدلا من مواجهة المسلمين فى معارك دامية أثبتت الحروب الصليبية فشلها الذريع فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، اذا بها فى القرن الخامس عشر تتجه الى توسيع نطاق تلك الحروب ، وذلك بتطويق المسلمين من الأمام والخلف • ووجه الأهمية هنا أن الطريق الى تحقيق هذا الهدف لم يكن معروفا ، ويتطلب جهودا متواصلة لاكتشافه • ومن ثم كانت النزعة الصليبية الاستعمارية هى القاعدة العريضة التى قامت عليها الكشوف الجغرافية فى أواخر العصور الوسطى •

ثم كان أن بدأت البرتغال فى تنفيذ مشاريعها التوسعية الصليبية ، فجهزت حملة ضخمة لغزو مدينة سبتة الاسلامية المنيعة ، وقبل أن تقلع الحملة من ميناء تاجه Tagus فى ٢٥ يوليو ١٤١٥ م ، طلب الملك يوحنا الأول الى مندوبه الدينى المرافق للحملة فراى جون أكسيرا Frei John Xira أن يعلن للجند غرض تلك الحملة وأهدافها ، وهنا القى المندوب موعظة تطفح بالروح الصليبية ، جاء بها أن المسيحى الكاثوليكى الذى لايدافع عن عقيدته بكل ماأوتى من قوة ، لايعتبر فارسا حقيقيا من أتباع المسيح فحسب ، بل هو أشد سوءا من العدو (٩) • وعلى أيه حال ، استطاع البرتغاليون الاستيلاء على سبته ، حيث رفعوا فوق قلعتها راية القديس فنسنت راعى لشبونة ، وقد أحدث سقوط سبتة دويا هائلا فى أوربا ، لا لأنه أطاح بأهلها المسلمين وطردهم من حصنهم المنيع فحسب ، بل أيضا للتطورات العظمى التى طرأت على البرتغال آنذاك ، وجعلت منها قوة استعمارية ضخمة (١٠) • وهنا نلاحظ أن البابوية رحبت بحماس منقطع

---

(٨) جوليان : تاريخ أفريقيا ، ص ٦١ •

(٩) Prestage, op. cit., pp. 23 — 24.

(١٠) Ibid., p. 25.

النظير جهود البرتغاليين لحرب المسلمين وباركتها ، ولا أدل على ذلك من أن البابا مارتن الخامس أصدر مرسوما فى ٤ أبريل سنة ١٤١٨ ، يدعو فيه ملوك وأمراء أوربا لمساندة الملك يوحنا الأول فى حروبه ضد أعداء المسيحية (١١) • ولكن دعوة البابا لم تجد لها صدى فى أوربا عندئذ ، اذ كانت دول أوربا فى شغل شاغل بمشاكلها الخاصة •

وفى هذا الدور من أدوار الحركة الصليبية تبرز شخصية الأمير هنرى الملاح (١٣٩٤ — ١٤٦٠) ثالث أبناء يوحنا الأول فى صورة الفارس الصليبى ، ومن المعروف أنه كان رئيسا لمنظمة المسيح Order of Christ وهى منظمة صليبية هدفها القضاء على المسلمين (١٢) • كما كان رئيسا لطائفة اليسوعيين (الجزويت) التى ورثت منظمة الداوية فى أملاكها ، وبالتالى كان يهمه العمل على كسب أراضى جديدة للمسيحة على حساب المسلمين (١٣) • وقد بدأ هنرى يهتم بجهوده الكشفية ذات الطابع الصليبى بعد الاستيلاء على سبته ، خاصة أن بعض المسلمين بها قد زودوه بمعلومات جديدة عن سواحل أفريقية الغربية ، ويروى زورارا — وهو مؤرخ البلاط المعاصر — أن الدوافع الرئيسية لمشاريع هنرى الكشفية لم تكن علمية وتجارية فحسب ، بل كانت دينية أضا ، ويعنى هذا القضاء على المسلمين طبقا للأفكار التى وضعها دعاة الحروب الصليبية أمثال وليم آدم وريموندلل ومارينو سانوتو ، وشجعها البابوات ، على أساس تطويق المسلمين من الأمام والخلف ، وتحطيم سيطرتهم على تجارة الهند باعتبارها المنبع الرئيسى لثروتهم (١٤) •

ويمكننا أن نقسم الفترة الزمنية التى تخللتها الكشوف البرتغالية بأمل الوصول الى الهند قبل مجىء البرتغاليين الى ساحل شرق أفريقية الى المراحل الآتية :

---

(١١) Da Silva Rego, op. cit., pp. 12 — 13.

(١٢) Prestage, op. cit., p. 27.

(١٣) سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ، جـ ١ ص ٥٥٩ •

(١٤) Prestage, op. cit., pp. 28 — 30; Fage, A Hist. of Africa, p. 222.

المرحلة الأولى : وتبدأ بالحملة التى وجهها البرتغاليون الى سبتة فى عام ١٤١٥ ، وتنتهى باجتياز رأس بوجادور فى عام ١٤٣٤ ، وتعتبر هـذه المرحلة بمثابة اعداد للكشوف البرتغالية ، وفى خلالها تم كشف بعض الجزر المهمة فى المحيط الأطلسى (١٥) ٠

المرحلة الثانية : وتمتد من عام ١٤٣٤ الى ١٤٦٢ ، وفيها حقق البرتغاليون نجاحا مطردا على الساحل الأفريقى الغربى ، خاصة أنهم منذ عام ١٤٤٠ كانوا يمتلكون السفن الشراعية الكبيرة المسماة « كارافيل Caravels » التى امتازت على غيرها بتحسينات كثيرة (١٦) ٠ وهنا نلاحظ أن حركة الكشف الجغرافى قد توقفت بين عامى ١٤٣٤ و ١٤٤١ بسبب الحملة التى قادها هنرى الملاح للاستيلاء على طنجة سنة ١٤٣٧ وانتهت بالفشل ٠ ثم نشطت حركة الكشف ، حتى تم كشف الرأس الأخضر سنة ١٤٤٥ ٠ وبعد وفاة هنرى الملاح بسنتين تقدمت حركة الكشف خطوة ، فوصل البرتغاليون الى خليج غينيا ، ومنه الى المكان الذى أطلقوا عليه المينا ، وشيدوا به قلعة (١٧) ٠

المرحلة الثالثة : وهى التى بدأت الرحلات الكشفية فى المضى خلالها سـنة ١٤٧٠ بعد فترة توقف قصيرة ، وفى هذه المرحلة التى دامت خمس سنوات بلغ البرتغاليون سنة ١٤٧٥ رأس كاترين الواقع على دائر عرض درجتين جنوب خط الاستواء (١٨) ، وبذلك أصبح الساحل الأفريقى الجنوبى الغربى معروفا ٠

المرحلة الرابعة : وهى التى بدأت فى سنة ١٤٨٢ ، وانتهت باكتشاف رأس الرجاء الصالح ، وفيها واصل دييجو كام وبارتلميو دياز حركة الكشف الجغرافى ٠ وكان دييجو كام قد قام برحلته الأولى فى سنة ١٤٨٢ ، متخذا

---

(١٥) Baker, op. cit., pp. 64 — 65.

(١٦) هـ٠ج٠وود : الارتياد والكشف الجغرافى ، ترجمة د٠ شـاكر حصباك ، ص ٥٨ ٠

(١٧) Sykes, op. cit., p. 102.

(١٨) Baker, op. cit., p. 65.

نفس الطريق الذى سار فيه من سبقه ، حتى وصل الى مصب نهـــر الكونغو ، حيث اقـام عمـودا تذكاريا تيمنـا بنجاحـه • وباكتشـاف البرتغاليين الكونغو وجدوا أنفسهم أمام دولة أفريقية كبيرة ، وهى دولة « باكونجو » المعروفة الآن باسم سان سلفادور فى أنجولا (١٩) • وفى عام ١٤٨٥ قـام دييجو كام برحلته الثانية على طـول السواحل الصحراوية لجنوب غربى أفريقية ، فوصل الى رأس الصليب قبل موته (٢٠) • أمـا الرحلة الكشفية التى قام بها بارثليمو دياز ، فقد بدأها سنة ١٤٨٧ ، وكان من بين التعليمات التى حددها له مليكه يوحنا الثانى (١٤٨١ ـ ١٤٩٥) هو الوصول الى مملكة القس يوحنا الأسطورية Prester John • وكان أن أبحر دياز من لشبونه ، وسار جنوبا على طول الساحل الغربى لأفريقية حتى بلغ طرف أفريقية الجنوبى ، ثم اتجه بعد ذلك شرقا أملا فى العثور على مرفأ يرسوفيه ، ولكنه لم يلبث أن اكتشف أنه فقد رؤية الأرض ، فعاد وغير اتجاهه شمالا ، فبلغ الساحل الأفريقى بالقرب من خليج موسـل فى ٣ فبراير سنة ١٤٨٨ ، وهنا لاحظ دياز أن الساحل الأفريقى صار على الجانب الأيسر من سفنه ، فأدرك عندئذ أنه عبر الطرف الجنوبى للقارة الأفريقية ، وكان يود أن يتابع الرحلة ، ولكن بحارته رفضوا التوغل أبعد من ذلك خشية أن يتعرضوا للخطر ، فعاد صوب وطنه قبل أن يصل الى الطرف الجنوبى للمدن العربية الاسلامية فى ساحل شرق أفريقية • وأخيرا عاد دياز الى لشبونة فى ديسمبر سنة ١٤٨٨ ، بعد أن أطلق على الطرف الجنوبى للقارة رأس الزوابع Cabo Tormentoso تذكارا للعواصف الشديدة التى واجهته ، ولكن مليكه أطلق عليها اسم الرجاء الصالح ، لأنه بعث الرجاء فى الوصول الى الهند (٢١) •

وكما سبق أن ذكرنا أن الوصول الى مملكة القس يوحنا كان أحد أهداف رحلة بارثلميو دياز الكشفية • وعلى الرغم من الغموض الـذى

---

(١٩) رولاند أوليفر ، جون فيج : تاريخ أفريقيا ، ص ٤٨ •

(٢٠) Baker, op. cit., p. 65.

(٢١) Sykes, op. cit., p. 103; Davies, op. cit., p. 64

يكتنف هذه الملكة ، والأساطير التى نسجت حولها فى العصور الوسطى ، الا أنه يلاحظ فى الوقت نفسه أن تلك الملكة ارتبطت بالمشاريع الصليبية التى تبنتها البرتغال ضد المسلمين ، على أساس أنهـا الملكـة المسيحية الوحيدة التى ظلت باقية خارج أوربا ، وبالتالى يمكن الاستعانة بها فى تطويق الأراضى الاسلامية من الأمام والخلف .

وقد أخذت الوثائق المتعلقة بالقس يوحنا — فى الظهور فى القرن الثانى عشر باعتبار أنه يعيش فى قارة آسيا ، وبعد أن فشلت الحروب الصليبية فى القرن التالى صار من الضرورى العثور على هذا الحليف لمساعدة المسيحية، ومن ثم أوفدت أوربا الرسل لهذا الغرض ، فوصل بيان دى كار بينى ومن بعده وليم الروبركوى الى بلاد المغول ، ولكن مهمتهما باءت بالفشل (٢٢). على أن الجغرافيين الأوربيين فى منتصف القرن الرابع عشر بدأوا ينقلون موقع مملكة القس يوحنا من آسيا الى أفريقية ، بيد أنهم لم يتفقوا على موقع محدد لها ، فوضعوها فى خرائطهم بالقـرب من نهر النيل ، أو فى جنوب شرقى أفريقية ، أو بالقرب من خليج غينيا ، وان كان موقعها فى أفريقية الشرقية والوسطى ، هو الذى شاع فى البرتغال عند بداية الرحلات الكشفية (٢٣) .

وكان الأمير هنرى الملاح أول من أهتم بالبحث عن القس يوحنا بهدف التحالف معه ، وبلغ من اهتمامه بأمر هذا القس أنه عندما تهيأ جونسالفيز Antao Goncalves للقيام برحلته الكشفية فى الساحل الأفريقى الغربى خاطبه قائلا : « سوف تؤدى لى بهذا العمل خدمة جليلة ، اذا أننى لأود كشف أرض هذا الساحل فحسب ، بل الهند وأرض القديس يوحنا أيضا » وتجدر الاشارة هنا الى أنه توفرت لهنرى خرائط جاءبهـا أن مملكة القس يوحنا موجودة فى أفريقية ، ومن الأرجح أن السفارة الحبشية التى زارت البلاط البرتغالى فى سنة ١٤٥٢ قـد أكدت له ذلك ، وقد دفعه هذا الى محاولة الاتصال بالملك القس يوحنا ، لاسيما اذا كـان يعيش بالقـرب من خليج

(٢٢) Prestage, op. cit., pp. 214 — 215.

(٢٣) Prestage, op. cit., p. 215

غينيا . ولكن الملك يوحنا الثانى ازداذ اقترابا من مكان مملكة القس يوحنا، اذ جعلته احدى الخرائط فى الحبشة فى شرق أفريقية ، ومن ثم فان الوصول اليها لايتم الا بالدوران حول القارة . وكان يوحنا الثانى يأمل أن يتيح له العثور على مملكة القس فرصة للتوسع البرتغالى ، والوقوف على الطريق الذى يؤدى به الى الهند (٢٤) .

ومهما يكن من أمر ، فقد عهد الملك يوحنا الثانى الى بدرودى كوفيلهان وزميله الفونسودى بايفا بمهمة البحث عن مملكة يوحنا واكتشاف المناطق المنتجة للهند ، عن طريق البحر المتوسط . فأقلع الرجلان من لشبونة الى نابولى فى ٧ مايو سنة ١٤٨٧ ، ثم الى رودس ، حيث اشتريا شحنة من العسل ليسافرا بها فى صورة تاجرين ، كما نصحهم بذلك أعضاء منظمة الاسبتار فى البرتغال ، ثم استقلا السفينة المتجهة الى الاسكندرية ، ومنها الى القاهرة ، وهناك انضما الى قافلة من المغاربة المسلمين ، وأبحرا معها فى ربيع سنة ١٤٨٨ الى عدن عن طريق سواكن . وعندما وصلا الى عدن انفصل الرجلان ، فذهب بايفا الى الحبشة ، فى حين استقل كوفيلهان سفينة وصلت الى كانانور ، ومنها توجه الى كاليكوت ، حيث رأى كميات وفيرة من التوابل ، كما عرف أن تجارتها الخارجية فى أيدى التجار المسلمين (٢٥). ومن كاليكوت توجه الى جوا ، ومنها الى هرمز أهم مركز فى الخليج العربى ، ثم فى نهاية سنة ١٤٨٩ عبر المحيط الهندى الى سفالة على الساحل الشرقى لأفريقية ، فوجدها مأهولة بالكثير من العرب الذين يتعاملون فى تجارة الذهب المجلوب من الداخل ، ثم رجع الى عدن فى أكتوبر سنة ١٤٩٠ ، ومنها الى القاهرة ، وبذلك انقضت حوالى أربع سنوات منذ أن غادر البرتغال (٢٦). وفى القاهرة اعتزم العودة الى وطنه بعد أن فرغ من المهمة التى كلف بها ، كما توقع أن يقابل زميله بايفا ، ولكنه علم بوفاته . وعلى أية حال . قابل كوفيلهان فى القاهرة مبعوثين يهوديين أرسلهما ملك البرتغال ، وقد حملا معهما رسالة تأمره بالعودة الى وطنه اذا كان قد فرغ من مهمتــه . غير أن كوفيلهان أرسل مع أحد اليهوديين تقريرا مطولا الى مليكه أوضح

---

(٢٤) Prestage, op. cit., pp. 215 — 216

(٢٥) Prestage, op. cit., pp. 217 — 218

(٢٦) Wilson, The Persian Gulf, p. 111

فيه الأماكن التى زارها ومشاهداته ، ثم توجه الى جدة ومنها الى مكة ، وقد تزى باللون الأبيض فى ثياب الحجاج وحلق رأسه ، ثم غادرها الى المدينة المنورة ، ومنها الى سيناء حيث زار دير سانت كاترين ، وأخيرا أبحر فى سنة ١٤٩٣ الى الحبشة واتخذها مقاما له ، ويعتبر كوفيلهان أول برتغالى تطأ قدماه أرض الهند ، ويرى مملكة القس يوحنا فى الحبشة التى صارت معروفة تماما لأوربا ، وأليه يرجع الفضل فى التمهيد للسيطرة البرتغالية فى ساحل شرق أفريقية (٢٧) .

وصول فاسكو دى جاما الى ساحل شرق أفريقية

توقفت حركة الكشوف البرتغالية بعد رحلة بارثلميوديياز حوالى اثنتى عشرة سنة . وفى تلك الأثناء اشتدت الرغبة فى الوصول الى الهند ، نتيجة لاتساع نفوذ الأتراك العثمانيين وسيطرتهم على أعالى الفرات والقسطنطينية من جهة ، ولتحكم سلطنة المماليك فى طريق البحر الأحمر ومصر والشام من جهة أخرى (٨) ، فى الوقت الذى اشتدت مخاوف البرتغال من النجاح الذى أحرزه الأسبان فى كشوفهم البحرية فى غرب المحيط الأطلسى . ولذلك عهد الملك عما نويل الأول (١٤٩٥ — ١٥٢١) الى فاسكودى جاما بقيادة حمله بحرية لاستئناف حركة الكشوف بهدف الوصول الى الهند بحرا ، والتأكد من أن سفالة الواقعة فى ساحل شرق أفريقية ، هى فعلا « أرض الذهب الذى لاينضب » (٢٩) .

ويذكر المؤرخ البرتغالى جونادوس دى باروس Barros أنه بعد أن استعدت الحملة للابحار استدعى الملك عمانويل قائد الحملة وضباطها لحضور احتفال أقيم لهذا الغرض ، وأعلن بحضور بعض كبار الشخصيات البرتغالية أن هدفه الأساسى من الوصول الى الهند هو نشر الديانة المسيحيةوالسيطرة على ثروات الشرق . ثم قام الملك بتسليم فاسكودى جاما راية من الحرير الأبيض عليها صليب هيئة المسيح الدينية ، وهنا أقسم فاسكو أنه سيرفع تلك الرأية عالية خفاقة أمام المسلمين والوثنيين ،

---

(٢٧) Prestage, op. cit., pp. 219 — 221

(٢٨) سعيد عاشور : المرجع السابق ، جـ ١ ص ٥٥٩ — ٥٦٠ .

(٢٩) Oliver & Mathew, op. cit., p. 134

وسيحميها ويدافع عنها حتى الموت ، كما وعد مليكه أنه سيؤدى الواجب الملقى عليه باخلاص ، وينفذ أوامره حتى يعود سالما الى أرض الوطن . وبعد أن تمت مراسيم الاحتفال ، تلقى فاسكو تعليمات مليكه الأخيرة ، وتسلم منه أوراق اعتماده لتقديمها الى القس يوحنا وملك كاليكوت (٣٠) ٠

أبحر فاسكودى جاما من لشبونة فى ٢٥ يوليو سنة ١٤٩٧ على رأس أربع سفن : سانت جابرييل التى كان يقودها بنفسه ، وسانت رافاييل ، وبيريو ، وأخرى تحمل مؤنا تكفى الحملة ثلاث سنوات ، أما البحارة الذين رافقوه فقد بلغ عددهم حوالى مائة وخمسين بحارا غالبيتهم من المجرمين والطبقات المعدمة والسجناء من البحارة الذين أطلق سراحهم شريطة الالتحاق بالحملة ٠ وتجدر الاشارة الى أن أولئك البحارة كانوا أول من ستطأ أقدامهم أرض ساحل أفريقية ، فاذا قتلهم اهالى الساحل لن تخسر البرتغال شيئا ، أما الضباط والمسئولون عن المدافع ، فقد كانوا من الطبقات العليا الذين لم تشتد بهم الرغبة الى الطموح والمغامرة فحسب ، بل أيضا الحماس الشديد لنشر تعاليم المسيحية بين المسلمين والوثنيين ٠ وكان برفقة فاسكو مترجم يهودى يدعى زاكوتو Zacuto ، لـه دراية بلغـات عديدة من بينها العربية ، ورغم أنه لم يسمح له الالتحاق بالحملة الا بعد أن تحول الى المسيحية ، فقد ظلت البحارة تطلق عليه « اليهودى » (٣١) ٠

ثم كان أن وصل فاسكو الى حيث انتهى بارثلميو دياز من قبل ، وهى الأرض التى يجرى نهر فش الكبير ، فاجتازها ، وواصل ابحاره ، حتى ألقى مراسية فى ٢٥ ديسمبر ١٤٩٧ فى مصب نهر أطلق عليه نهر الرحمة كما أطلق على الأراضى الواقعة حوله اسم ساحل ناتال Natal (٣٢) ٠ وكان فاسكو قبل وصوله الى هذا الساحل قد عانى متاعب مريرة ، من جراء العواصف الشديدة التى أرهقت البحارة ، وأفسدت الطعام والمـاء العذب

---

(٣٠) Prestage, op. cit., pp. 251 — 252.

(٣١) Davies, op. cit., pp. 72 — 73

(٣٢) Prestage, op. cit., p. 255.

والمعروف أن Natal مشتقة من الكلمة اللاتينية Natalis بمعنى الميلاد ، اذا أن اكتشاف الساحل كان فى عيد الميلاد (٢٥ ديسمبر)

الصالح للشرب ، وبلغ الأمر أن أصاب بحارته مرض الأسقربوط الوبيل ، فمات منهم حوالى مائة . وقد رحب أهالى المنطقة الأفارقة بفاسكو ، فأمدوا سفنه بالمؤن والماء العذب والفاكهة الطازجة ، ومن ثم عادت الصحة الى بحارته (٣٣) . ثم أبحر فاسكو شمالا ، وفى ١١ يناير ١٤٩٨ رسا بالقرب من مصب نهر ليمبوبو ، حيث شاهد معدن النحاس بوفرة ، فغير اسمه الى نهر النحاس . ونتيجة للترحيب الذى لقيه من قبائل البانتو فى تلك المنطقة ، اطلق عليها اسم « أرض الناس الطيبين » (٣٤) ، ثم مالبث أن عبر رأس كورنتس .

وبعد ابحار قصير ، بلغ فاسكو مدينة سفالة آخر المدن الاسلامية الواقعة فى جنوب الساحل الشرقى لأفريقية ، وفى تلك المدينة انبهر البرتغاليون بما شاهدوه من معالم حضارة راقية تفوق حضارتهم فى بعض المظاهر . فالبيوت الحجرية ، والنوافذ ذات التعريشات والمزججة بالزجاج الملون ، والمساجد المرتفعة المآذن ، والسوق الزاخر بحوانيته التى يباع فيها المشغولات النحاسية ، والسيوف المرصعة بالجواهر والفضة ، كل ذلك أثار دهشة البرتغاليين واعجابهم . على أن أعظم مااسترعى انتباههم ، مارأوه من وفرة التوابل بجميع أنواعها ، وعندما أظهر فاسكو لتجار سفالة عينات من التوابل التى أحضرها معه من البرتغال ، لم تأخذهم الدهشة كما توقع ، اذ أخبروه أنهم على دراية بأنواع التوابل كلها ، بما فيها السكر الذى يعتبر من التوابل آنذاك . وهنا عرف فاسكو أن التوابل ترد الى الساحل من الهند على ظهر سفن الداو المحيطية ، التى كانت تبحر بانتظام من زنجبار الى كاليكوت . كما عرف أن المدينة الأخيرة كانت المستودع الهائل لتجارة الشرق الأقصى . وكيفما كان الأمر ، فقد وصل البرتغاليون الى الحافة الجنوبية من العالم الاسلامى فى الساحل ، ذلك العالم الذى لم يكن معروفا للأوربيين الا فى منطقة البحر الأبيض المتوسط (٣٥) .

---

(٣٣) Davies, op. cit., pp. 77 — 78.
(٣٤) Sykes, op. cit., p. 109; Baker, op. cit., p. 69
(٣٥) Davies, op. cit., pp. 78 — 79.

وبعد أن مكث فاسكو فترة قصيرة فى سفالة ، أبحر شمالا الى موزمبيق على أنه قبل أن تدخل سفنه ميناء هذه المدينة فى ٢ مارس سنة ١٤٩٨ ، شاهد بحارته مركبا يطلق عليه سمبوق (٣٦) ، يحمل على ظهره تاجرا يتحدث بالعربية يدعى دافانا Davana ، فأحضروه الى ظهر سفينة فاسكو، ولما حادثه فاسكو بوجود المترجم « اليهودى » ، اتضح أنه يتحدث العديد من اللغات الأفريقية والهندية ، وأبدى تعاونه مع البرتغاليين ، ووافق على أن يعمل دليلا لهم • وفى الميناء أحاطت مراكب تجارية صغيرة بالسفن البرتغالية ، اذ أعتاد العرب والأفارقة على استقبال السفن التى تصل الى الميناء ، ورمى الى أذهانهم أن البرتغاليين مسلمين مثلهم ، فرحبوا بهم • حدث هذا فى الوقت الذى لم يفصح فاسكو عن غرضه الصليبى ، وهو القضاء على دور العرب التجارى ، وذلك بالسيطرة على منابع تجارتهم ، وتظاهر بانه جاء للبحث عن سلع يبتاعها • وفى أثناء وجوده فى مياه موزمبيق علم فاسكو أن سفنا عديدة تأتى من الشمال الى موزمبيق ، حاملة مختلف السلع والتوابل (٣٧) • كما علم أيضا ، وقد تهلل فرحا ، أن القس يوحنا فى الداخل (٣٨) •

على أن أهالى موزمبيق المسلمين خامرهم الشك فى جنسية الوافدين والسبب الذى أتوا من أجله ، ذلك أن بعض الأحباش المسيحيين ممن كانوا يعملون فى خدمة التجار العرب ادركوا كنه الرموز المسيحية التى تحملها سفينة فاسكو ، وتأكد حدسهم عندما كانوا يقومون بنقل سلع سادتهم التجار العرب الى ظهر السفينة ، فركعوا احتراما للشارات المسيحية ، ورسموا شارة الصليب على صدورهم • وعندما وصل الخبر بما حدث الى سلطان موزمبيق شاه كوايا Shah Khwaya ، رأى القيام بزيارة لفاسكو كى يتحقق من ذلك بنفسه • وكان أن اعتلى السلطان ظهر سفينة

---

(٣٦) الصنبوق أو السمبوق نوع من الزوارى الصغيرة ، استخدام فى كل من الخليج العربى والمحيط الهندى والبحر الأحمر • أنظر : درويش النخيلى : السفن الاسلامية ، ص ٧٠ — ٧١ •

(٣٧) Davies, op. cit., pp. 79 — 80

(٣٨) Prestage, op. cit., p. 257

القائد البرتغالى محاطا بحاشيته وعبيده • ولما سأل السلطان فاسكو عن هويته والغرض الحقيقى لرحلته أخفى عليه ذلك ، وادعى أنه وبحـــارته تجار أتوا من بلاد بعيدة للعثور على مصادر التوابل والحرير والجوهرات والمعادن الثمينة ، وأن السلع التى حملوها معهم لمقايضتها ضاعت منهم فى البحر ، كما أن لديهم كمية ضخمة من النقود الذهبية والفضة تكفى لشراء ما يلزمهم من سلع • ولا شك أن السلطان كان غافلا عن نوايا فاسكو الصليبية ، اذ صدق مزاعمه ، وتعبيرا عن حسن نواياه فى فاسكو أكد له أنه ليس ثمة مايدعوه الى أن يذهب أبعد من موزمبيق ، لأن كل ما يحتاجه من سلع متوفر لديه ، فأظهر فاسكو اغتباطه بعرض السلطان ، وقــدم له الهدايـــا (٣٩) •

ولكن سلطان موزمبيق سرعان ما أدرك حقيقة البرتغاليين وأهدافهم ، وزاد اقتناعا بما يكنونه من عداوة للاسلام ، عندما أخبره عبيـــده أن قداسا يقام كل صباح على ظهر سفينة فاسكو ، الأمر الذى جعله يصمم على القضاء عليهم ، بيد أنه لما كان يعلم من دافانـــا أن البرتغاليـــين مسلحين تسليحا قويا ، وأحس بأنه عاجز عن الدخول معهم فى معــركة وجها لوجه لتفوقهم فى العتاد والسلاح ، فقد آثر استخدام الحيلة ، وأخفى الأمر عن دافانا الذى كون معهم علاقات طيبة ، واكتفى بأن عهد اليـــه بتسليم رسالة الى فاسكو يدعوه فيها وبحارته الى وليمة أعدها ترحيبا بقدومهم الى المدينة • ويبدو أن دافانا فطن الى ما يدبره السلطـــــان للبرتغاليين ، وزاد على ذلك بأن حذره من وقوع سفنه فى الأسر وقتـــل بحارته اذا قبل الدعوة ، ولذلك قرر فاسكو ان يغادر موزمبيق فى الحال ولكنه قبل أن يغادرها أرسل دافانا لاحضار مايلزمه من مـــؤن ، ولكن دافانا لم يستطع الحصول الا على قليل من الذرة والسمك ، لأن السلطان أصدر أوامر للتجار بالامتناع عن البيع لهم • ولم يكن أمـــام فاســــكو بديل من الابحار دون مؤن ، بيد أنه كان عليه الحصـــول على الماء العذب • وعندئذ عثر دافانا على أحد الرجال دسه الســـلطان عليه ، أوعز اليه أن

---

(٣٩) Davies, op. cit., pp. 80 — 82

باستطاعته أن يدله على مورد ماء عذب (٤٠) . ولم يلبث هذا الرجل أن قاد البرتغاليين الى خليج ضحل نغطى بأشجار كثيفة ، قاصدا بذلك أن يضيع الوقت عليهم حتى ينحسر المد ويتعذر عليهم الابحار . وأخيرا
أن يضيع الوقت عليهم حتى ينحسر المد ويتعذر عليهم الابحار . وأخيرا
قادهم الى مورد ماء يقف عنده رجال مسلحون بالقسى والنبال والحراب تابعين للسلطان ، وكان أن اشترك الفريقان فى قتال انتهى بقتل أتباع السلطان ، وبعد أن أخذ البرتغاليون كفايتهم من الماء العذب أسرعوا بالعودة الى سفنهم ، وجرى انتقامهم من السلطان باطلاق وابل من قذائف مدافعهم على المدينة ، فأصابها الكثير من الخراب والدمار (٤١) . ولا شك أن ما أحدثه فاسكو بالمدينة من دمار وقتل للسكان ، ترك أثرا [illegible] لأنهم باتوا يدركون [illegible] الأخطار المحيطة بهم .

وعلى أية حال ، أبحر فاسكودى جاما من موزمبيق شمالا ، فبلغ ممبسة فى ٧ ابريل سنة ١٤٩٨ ، وكانت أخبار ماشعله بمدينة موزمبيق قد وصلت الى بقية المدن الساحلية من أقصاها الى أدناها ، فعرفت الأهداف الصليبية الكامنة وراء الحملة التى تستهدف الانقضاض على على المسلمين وتقويض دورهم التجارى ، وبعبارة أخرى أدرك عرب ساحل المحيط الهندى الغربى أن واجبهم يحتم عليهم مواجهة الغزو البرتغالى الصليبى ، على نحو مافعل اخوتهم فى منطقة البحر المتوسط من قبل . ومما يؤيد هذا أن سلطان موزمبيق بعث الى سلطان ممبسة ، وهى المركز التجارى التالى على الساحل ، يحذره من اقتراب البرتغاليين من مدينته ، كما لفت نظره الى العواقب الوخيمة المترتبة على التهاون فى مقاومتهم (٤٢) .

على أن سلطان ممبسة كان عاجزا بدوره عن الدخول فى معركة مع فاسكو ، ورأى أن يتخلص منه بطريقة أخرى ، فأرسل داوا محملا بالفاكهة والهدايا لدعوته الى دخول الميناء . وكان على ظهر الداو دليلان

---

(٤٠) Ibid., p. 82

(٤١) Prestage, op. cit., p. 257

(٤٢) Davies, Exploring the world, pp. 83 — 84

عهد اليهما السلطان بمهمة استقبال فاسكو ، وفى نفس الوقت للايقاع به ، فقابلاه وعرضا عليه أن يرسو بسفنه فى الميناء ، ولكنه قبل أن يوافق رأى أن يتخذ الحيطة ، فأرسل اثنين من بحارته يصحبهما دافانا للبحث عن مسيحيين مقيمين بالمدينة للاستعانة بهم من منطلق انهم أخوة له فى الدين ، وفعلا وجد دافانا عددا كبيرا من العبيد المسيحيين ، وعددا قليلا من المعتقين منهم ، ممن سمح لهم بممارسة التجارة ، وقد كشفوا جميعا عن نواياهم الصليبية تجاه البرتغاليين ، فى الوقت الذى لايملكون من الأمر شيئا مع المسلمين • ولما كان فاسكو يعانى نقصا حادا فى المؤن ، فقد أرسل دافانا الى المدينة ليمده السلطان بما يلزمه من مؤن ، فوعده السلطان أن يستجيب لطلبة حال دخول السفن البرتغالية الميناء ، وكان أن استعان فاسكو بالدليلين لارشاد سفينته والدخول بها فى الميناء ، غير أنه لم يلبث أن اكتشف أنهما يحاولان الايقاع به ، فأمر بوضعهما فى الأغلال ، وقد تمكن أحدهما من الهرب بالقفز من السفينة ، أما الآخر فقد صب عليه شحما مغليا ، جعله يعترف أن السلطان أمره أن يتسود السفن البرتغالية الى مكان ضحل كى ترتطم به • ومن جراء ذلك أسرع فاسكو الى الخروج بسفينته فى منتصف الليل وقت انحسار المد ، وأخذ معه الدليل أسيرا (٤٣) •

ومن ممبسة أبحر فاسكو الى مالندى ، فوصلها بعد يوم واحد فى ١٤ أبريل سنة ١٤٩٨ ، وهناك استقبله سلطانها بمظاهر الحفاوة والترحيب ، وهو أمر لم يألفه فاسكو منذ أن ظهر بأسطوله فى مياه ساحل شرق أفريقية • ومن الأرجح أن المالنديين رحبوا بفاسكو خوفا من مدافع سفنه ، أو أن السلطان كان يأمل أن يجد فى فاسكو حليفا يخلصه من تبعيته لكلوة التى كانت تمارس نفوذا على مدن الساحل الأخرى (٤٤) •

وهنا نلاحظ أن سلطان مالندى كان فى نزاع دائم مع سلطان موزمبيق ، ويبدو أن فاسكو وقف على حقيقة هذا النزاع ، فأراد أن يستغله

---

(٤٣) Ibid., pp. 84 — 85

(٤٤) Prestage, op. cit., pp. 258 — 259

لصالحه ، ولذلك أرسل السلطان مالندى هدية هى ثلاثة أحواض للغسيل ومسابح من المرجان ، ورداء ، كانت عينة من الهدايا التى أحضرها معه فاسكو من البرتغال لتوزيعها على من يتوسم فيه الولاء والخضوع للتاج البرتغالى ، على أساس أن حكام الساحل فى مستوى متدن من الحضارة وترضيهم تلك الهدايا . وحين اكتشف فاسكو أن هديته لا تليق بسلطان مالندى اعتذر له بأنها مقدمة من شخصه ، وليست من ملك البرتغال الغنى الذى تفوق ثروته كل وصف (٤٥) . وعلى أية حال ، قبل السلطان الهدية ، ومنحه فى مقابلها كمية من التوابل الثمينة . ثم أرسل فاسكو الى السلطان مبديا رغبته فى اقامة علاقات ودية معه ، فى الوقت الذى طلب اليه أن يمده بأدلاء يستعين بهم فى الوصول الى الهند ، وجاء الرد مرضيا ، وتعزيزا لذلك رأى السلطان أن يقوم بزيارة لفاسكو فى سفينته ، فركب زورقه الملكى ، وعندما استقبله فاسكو ، كان السلطان مرتديا رداء من الحرير الدمشقى ، مزركشا بالحرير الأخضر ، وفى وسطه سيف محلى بالجواهر ، يتدلى من حزام من الفضة ومحلى بالياقوت ، وقد جلس السلطان على كرسى وثير مصنوع من البرونز ، تحميه مظلة قرمزية اللون ، وقد اصطحبه موسيقيون ينفخون فى أبواق من سن الفيل . ثم كان أن وقع السلطان معاهدة مع فاسكو صار بمقتضاها تابعا لملك البرتغال ، وفى نظير ذلك أبدى فاسكو استعداده لمساعدته ضد خصمه سلطان موزمبيق ، وتذكارا لهذه المناسبة أقام فاسكو عمودا من الرخام على شاطىء المدينة ، وهو أول بناء دائم شيده الأوربيون فى الساحل ، لازال قائما حتى الوقت الحاضر (٤٦) . والخلاصة أن سلطان مالندى كان أول حاكم فى الساحل يرتمى فى أحضان البرتغاليين ويتعاون معهم ، بحيث أصبحت مالندى هى الحليفة الوحيدة الدائمة للبرتغال .

ونظرا لجهل فاسكودى جاما بمسالك المحيط الهندى،فقد شغل بالبحث عن ملاح خبير بأمور الملاحة وطرقها ، لمساعدته على اتمام الرحلة الى الساحل الغربى للهند ، وقد سبق أن ذكرنا أن فاسكو طلب دليلا من

---

(٤٥) Davies, op. cit., p. 86

(٤٦) Marsh & Kingsnorth, The Hist. of Africa, pp. 26 — 27, Davies, op. cit., pp. 87 — 90

سلطان مالندى ، ولكن السلطان تراخى فى استجابة طلبه ، وحدث أن توجه الى سفينة فاسكو ملاح مسلم من جوجرات تابع للسلطان ، وهو ابن ماجد الشهير ، والذى اعتقد فاسكو خطأ أنه مسيحى ، فاحتجزه وأخذه معه دليلا فى رحلته الى كاليكوت فى ٢٤ أبريل سنة ١٤٩٨ ، فوصل اليها فى ٢٠ مايو من نفس العام (٤٧) • ويروى المؤرخ البرتغالى كاستنهيدا كيف رافق الربان العربى فاسكودى جاما فى رحلته قائلا : « كان فاسكودى جاما يجهل الطرق البحرية التى ينبغى عليه أن يسلكها الى الهند ، فطلب من ملك مالندى أن يمده ببحار خبير بمياه المحيط الهندى ، غير أن الملك لم يكترث بطلب الأميرال ، مما أدى الى توتر العلاقات بينهما • وفى يوم ٢٢ أبريل سنة ١٤٩٨ ، زار أحد خواص الملك الأميرال فى سفينته ، فاحتفظ به رهينة عنده حتى يجبر الملك الى تلبية طلبه ، ولما علم الملك بما لجأ اليه الأميرال ، بادر بارسال ربان يدعى كاناكوا (٤٨) ••• » •

أما المؤرخ البرتغالى باروس فقد أورد تفصيلات شاملة تتناول هذا الموضوع ، استمدها من مؤرخى القرن السادس عشر ، قائلا : « فى أثناء وجود فاسكودى جاما فى مالندى ، كان برفقته جماعة من الهنود توجهوا الى سفينة أمير البحر ، ومعهم أحد مسلمى جوجرات (منطقة فى غربى الهند) يدعى « ماليمو كانا » ، وقد أخذ يحدث ملاحينا ، وكان الذى دفعه الى ذلك عاملان : عامل حب الاطلاع على أخبارهم وحوادثهم ، وعامل الرضا فى النزول عند رغبة ملك مالندى ، الذى كان يبحث عن ملاح يقبل مرافقة البرتغاليين ليدلهم على طريق الهند • وأعجب فاسكو بحديث هذا الرجل المسلم ومعلوماته الطريفة ، لاسيما عندما أطلعه على خريطة لجميع شواطىء الهند ، كما يعرفها المسلمون ، موضحا بها خطوط الطول ودوائر العرض بما فيها الدرجات بصورة دقيقة ، بخلاف خرائطنا التى يظهر فيها التشويش من اختلاط العلاقات الدالة على اتجاه الرياح والابرة المغنطة • ثم أخرج فاسكو دى جاما اصطرلابا خشبيا كبيرا واصطرلابات أخرى معدنية لقياس

---

(٤٧) Prestage, op. cit., p. 260

(٤٨) محمد ياسين الحموى : الملاح العربى ابن ماجد ، ص ٧ ــ ٨ •

ارتفاع الشمس • ولكن الرجل المسلم لم يظهر أية دهشـــة من رؤية هذه الآلات ، بل قال : أن ربابنة العرب فى البحر الأحمـــر كـــانوا يستعملون أجهزة مثلثية ومربعية الشكل لقياس ارتفاع الشمس ، وخصوصا النجم القطبى وأضاف الرجل المسلم أنه وغيره من الملاحين يبحرون من « كمباية » ـ ميناء فى جوجرات ـ ومن كل أنحاء الهند ، ويستعينون ببعض النجوم الشمالية والجنوبية الى جانب النجوم الواقعة فى منتصف السماء ، وكذلك الشرقية والغربية منها • ولهذا فهم لايستخدمـون الاصطرلاب ، انمـا يستخدمون أجهزة أخرى عرضها لهم ، وهى تتكون من ثلاثة ألواح ولهـا نفس الهدف لدى ملاحينا • وبعد هذا الحوار الطويل مع الملاح العربى ، اقتنع فاسكودى جاما أنه عثر على كنز ثمين ، وحتى لايفقده أمر على الفور بالابحار الى الهند ، وذلك فى ٢٤ أبريل عام ١٤٩٨ ، ووصل دى جاما الى كاليكوت فى أقل من شهر ، دون أن يعترضه حادث ، وذلك فى ٢٠ مايو » (٤٩) •

ومما يذكر أن المصادر البرتغالية قد أغفلت اسم الربان العربى المسلم الذى كان سببا فى هذه الواقعة الحاسمة وماكان لها من تأثير بالغ الضرر فى مصالح الشرق الاسلامى ومصيره •وفى نفس الوقت لزم المؤرخون الصمت ازاء تلك الواقعـة ، فلم نعرفهـا ، بل لم نعـرف أسـم الربان الحقيقـى الا من مؤرخ واحد عاش فى القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) ، هو قطب الدين النهر والى فى كتابه «البرق اليمانى فى الفتح العثمانى»(٥٠) اذ تحدث عنها عرضا عندما تناول انتقال الدولة باليمن من بنى طاهر الى الأمير حسين من الشراكة ، قائلا : « وقع فى أول القرن العاشر (الهجرى) من الحوادث الفوادح النوادر ، دخول البرتغاليين اللعين ، من طائفة الفرنج

---

(٤٩) احمد بن ماجد : ثلاث ازهار فى معرفة البحار ، ص ٨٤ ـ ٨٦ ، محمد ياسين الحموى : المرجع السابق ، ص ٨ ـ ١٠ ، نفيس احمد :جهود المسلمين فى الجغرافيا ، ص ١٣٤ ـ ١٣٥ •

(٥٠) ص ١٨ ـ ١٩ ، يحيى بن الحسين : غاية الأمانى فى اخبار القطر اليمانى ، تحقيق وتقديم د• سعيد عبد الفتاح عاشور ، مراجعة د• محمد مصطفى زيادة ، ج ٢ ، ٦٣٠ ـ ٦٣١ ، محمد ياسين الحموى : المرجع السابق، ص ١٠ ـ ١١ ، احمد بن ماجد : المصدر السابق ، ص ٨٧ ـ ٨٨ •

الملاعين الى ديار الهند ، وكانت طائفة منهم يركبون من زقاق سبتة فى البحر ويلجون فى الظلمات ، فيمرون بمضيق أحد جانبيه جبل والجانب الثانى بحر الظلمات ، فى مكان كثير الأمواج ، لاتستقر به سفائنهم ، وتنكسر ، ولاينجو منهم أحد ، واستمروا على ذلك مدة ، وهم يهلكون فى ذلك المكان ، ولا يخلص من طائفتهم أحد الى بحر الهند ، الى أن خلص منهم غراب (٥١) الى الهند ، فلا زالوا يتوصلون الى معرفة هذا البحر ، الى أن دلهم شخص ماهر ، يقال له أحمد بن ماجد صاحبه كبير الفرنج ، وعاشره فى السكر ، فعلمه الطريق فى حال سكره ، ... فكثروا فى بحر الهند ، ... وصارت الأمداد تترادف ويأخذون كل سفينة غصبا ، الى أن كثر ضررهم على المسلمين » . ومما يجدر ذكره أن احمد بن ماجد وضع مؤلفات قيمة فى الملاحة ورسم خرائط الملاحة فى بحار الشرق ، وقد نشر المستشرق الفرنسى جبرييل فران والمستشرق الروسى تيودور شوموفسكى بعض هذه المؤلفات ، وأيدوا جميعا ماذكره قطب الدين النهروالى من أن فاسكودى جاما لم يتمكن من الوصول الى الهند الا بفضل أحمد بن ماجد . على أننا نستبعد حالة السكر التى أوردها النهروالى ، اذ من المحتمل أن بعض أهالى مكة قد دسها على المؤرخ ، ليبرربها ماأقدم عليه أحمد بن ماجد من عمل دون قصد منه ، ظهرت آثاره الضارة على مصالح المسلمين فى غضون سنوات قلائل . وقد شك جبرييل فران فى صحة تلك الفرية ، لأن المسلمين لايقبلون دعوة مسيحى لايعرفونه ، حتى يتأكدوا من طعامه وشرابه اذا كانا لايحويان ماتمنعه شريعتهم وتقاليدهم الدينية ، ثم قال : « والذى يظهر لنا أن هذه الرواية مخترعة لتبرير عمل يعده مسلمو مكة خيانة عظمى » (٥٢) وبالاضافة الى هذا ، لايرقى الى المنطق أن يترك فاسكو

---

(٥١) غراب اسم سفينة استخدمها المسلمون والأوربيون فى العصور الوسطى ، وقد أطلق عليها هذا الاسم لرقتها وطولها وسوادها بالأطلية المانعة للماء عنها كالزفت وغيره ، فصارت تشبه فى سوادها الغربان من الطير لسوادها وسواد مناقيرها ، أو على الأقل لأن مقدم هيكلها كان على شكل رأس غراب . أنظر : درويش النخيلى : المرجع السابق ، ص ١٠٤ - ١١٢ .

(٥٢) محمد ياسين الحموى : المرجع السابق ، ص ١١ - ١٢ .

قيادة سفنه لابن ماجد رهو فى حالة سكر ، وهو الرجل ـ أى ابن ماجد ـ المعروف من كتاباته وأراجيزه بشدة ورعه وحجه الى مكة المكرمة » (٥٣) ٠

وبعد هذا كله ، يعلق حورانى على (٥٤) مساعدة احمد بن ماجد لفاسكو دى‌جاما على الوصول الى الهند بقول: «فكان من سخريات التاريخ أن ملاحا عربيا كبيرا ساعد على القضاء على الملاحة العربية ، اذ لم يستطيع ابعاد البرتغاليين ومن تبعهم من الشعوب الأوربية الأخرى اومنافستهم » ٠

وعلى أية حال ، وصل فاسكو الى كاليكوت أهم موانى ساحل ملبار الهندى فى ٢٠ مايو سنة ١٤٩٨ كما سبق أن أشرنا ، وأقام فيها شهورا يتعرف على أحوالها ، كما تمكن خلالها من مقابلة السامرى حاكم كاليكوت، ولكنه فشل فى عقد اتفاقية تجارية معه أو انشاء مركز تجارى للبرتغاليين فى فى بلاده ، خاصة بعد أن علم الأهالى أن الهدف من رحلته هو احتكار تجارة التوابل التى كان يشتريها الأوربيون من التجار العرب والمسلمين (٥٥) ٠

ونتيجة للفشل الذى واجهه فاسكو فى كاليكوت ، عاد الى ساحل شرق أفريقية ، فوصل أولا الى مقديشيو ، ويبدو أن أهلها استقبلوه بعداء شديد ، اذ أطلق على المدينة قذائف مدافعه ، فهدمت العديد من المنازل ، وأغرقت بعض السفن الراسية فى مياه شاطىء المدينة ٠ ثم كان أن أبحر فاسكو جنوبا الى مالندى ، فاستقبله سلطانها بحفاوة ، وأمده بالمؤن والمياه العذبة ٠ ويبدو هنا أن خضوع سلطان مالندى للنفوذ البرتغالى قد عرضه لسخط حكام الساحل وتهديداتهم ، مما جعله يشعر بضعف موقفه من ناحية، والخوف على ضياع سلطته من ناحية أخرى ٠ ولهذا لجأ الى فاسكو وأفضى اليه بمخاوفه ، فأكد له فاسكو أن البرتغاليين سوف يأتون الى الساحل فى أعداد غفيرة ، ووعده بتأمين سلامة مدينته ، ومما يؤيد هذا أنه سلط على مدينة ممبسة نيران مدافعه ، كما ضرب عدة مستوطنات عربية فى الساحل ، ثم أبحر عائدا الى وطنه،فوصل الى لشبونة فى سبتمبر سنة ١٤٩٩م(٥٦)

---

(٥٣) جمال زكريا قاسم : الأصول التاريخية للعلاقات العربية الأفريقية ، ص ٨٩ ٠

(٥٤) العرب والملاحة فى المحيط الهندى ، ص ٢٣٧ ٠

(٥٥) زين الدين : تحفه المجاهدين ، ص ٣٧ ٠

(٥٦) جيان : وثائق جغرافية وتاريخية ، ص ٢١٠ ،
Davies, op. cit., pp. 98 — 99

وينبغى القول هنا أن فاسكودى جاما بوصوله الى الهند ، استطاع أن يقف على كثير من أحوال سكان ســـاحل شرق أفريقيـــة والثروات الكامنـــة فى أرضـــه • وأهـم من ذلك بكثير أن اتمـام الرحـلة البحرية من لشبونة الى الهند يمثل تحولا بارزا فى تاريخ التجارة الشرقية • اذ كانت المحصولات الشرقية تصل الى أوربا حتى ذلك الوقت بواسطة التجار فى مصر ، الذين كانوا يبيعونها بدورهم الى البنادقة ، ومن المعروف أن التجارة فى تلك المحصولات عادت على مصر والبندقية بأرباح طائلـــة ، وبوصول البرتغاليين الى منابع تجارة التوابل فى الهند والحصول عليها دون حاجة الى وسطاء ، انقلب نظام الســـوق التجارى رأســـا على عقب • وخير مايوضح ذلك أن ملك البرتغال أرسل الى البندقية يخطرها فى لهجة لا تخلو من التهكم ، أنه لم يعد لسفنها حاجـــة بعد ذلك الى الذهاب الى مصر للحصول على التوابل ، اذ لن تجد فيها شيئا ، وعليها أن تقتنع فى مستقبل الأيام بأن تحصل عليها من لشبونة ، حيث وعدهم الملك بالمعاملة الطيبة التى تشعرهم بأنهم بين ذويهـــم (٥٧) • ولاشك أن رحلة فاسكو الى الهند قد عادت ببالغ الضرر على مصر والبندقيـــة آنذاك ، اذ سقطت مصر فى خلال عشرين عاما فى يد الأتراك العثمانيين (١٥١٧ م) ، أما البندقية فيمكن القول أن أسواقها التجارية قد أغلقت سنة ١٥٧٣ م ، بعد أن استولى الأتـــراك العثمانيون على جزيـــرة قبرص (٥٨) •

وصفوة القول ، أن رحلة فاسكو تعتبر حدثـــا خطيرا فى تاريخ العـــالم ، نقلته من العصـــور الوسطى الى العصور الحديثة • فقد مهـــدت للبرتغال تكوين امبراطوريتها فى الهند والشرق الاسلامى ، وأضفت على البرتغال هيبة عظيمة ، جعلت ملوكها يطلقون على أنفسهم « سادة الفتح والملاحة والتجارة فى الهند والحبشة وبلاد العرب وفارس » ، وهو لقب باركته البابوية آنذاك وأكدته (٥٩) •

---

(٥٧) شارل ديل : البندقية جمهورية ارستقراطية ، ترجمة د• احمد عزت عبد الكريم ، توفيق اسكدر ، ص ١٤٥ ـ ١٤٦ •

(٥٨) Miles, Countries and Tribes of the Persian Gulf, p. 138.

(٥٩) Wilson, op. cit., p. 202

الحملات البرتغالية الى الساحل فى بداية القرن السادس عشر :

رأينا فيما سبق أن البرتغاليين نجحوا فى الوصول الى الهند ، وأمكنهم الحصول على التوابل دون حاجة الى دفع رسوم عبر الطرق البحرية الخاضعة لنفوذ دولة المماليك فى مصر ، بيد أن أطماعهم لم تقف عند هذا الحد ، اذ أخذوا يفكرون فى تثبيت أقدامهم فى ساحل شرق أفريقية ، الأمر الذى يؤكد حقيقة أن ميدان الحروب الصليبية لم يقتصر على بلاد الشام ومصر وشمال أفريقية والأندلس ، بل امتد أيضا الى ساحل شرق أفريقية • وكان الأمر سهلا بالنسبة للبرتغاليين ، ذلك أن سفنهم الحربية المزودة بالمدافع الضخمة فضلا عن استخدام البارود والاسلحة النارية التى أخذت تنتشر فى أوربا آنذاك ، كل ذلك جعلهم لايصادفون متاعب حقيقية فى السيطرة على مدن الساحل • ومما ساعدهم على ذلك ماكانت عليه القوى السياسية فى الساحل من ضعف ، وانشغالها بمنازعاتها ، وقد ظهر ذلك واضحا لفاسكودى جاما أثناء مروره على الساحل فى طريقه الى الهند •

وهنا نلاحظ أن الروح الصليبية قد طغت على عمانويل الأول ملك البرتغال ، اذ لم تستهدف مشاريعه الاستيلاء على مدن الساحل فحسب بل اشتدت رغبته أيضا فى القضاء على المسلمين ، على أساس أنهم أعداء المسيحية الألداء (٦٠) • وكان أن أخذ البرتغاليون يرسلون الحملات تباعا الى الساحل ، وأولى تلك الحملات التى خرجت من لشبونة فى ٩ مارس سنة ١٥٠٠ ، كانت بقيادة بدرو الفاريز كابرال ، وتبدو أهمية تلك الحملة فى ضخامتها ، فقد جهزها عمانويل بثلاث عشرة سفينة ، واختار لها أعظم بحارة تلك الأيام خبرة ، وزودها بمؤن تكفى لغياب طويل (٦١) • وعلى أية حال وصل كابرال الى موزمبيق فى ٢١ يوليو من نفس العام ، وفى هذه المرة شاهد سكان المدينة أعدادا ضخمة من القوات البرتغالية لم يعهدوها من قبل ، الامر الذى جعلهم يشعرون بعجزهم عن مقاومتها ، وفتحوا أبواب المدينة لكابرال • ثم أبحر كابرال

---

(٦٠) جيان : المرجع السابق ، ص ٢١٣ ـ ٢١٤ •

(٦١) Prestage, op. cit., p. 277

الى كلوة فوصلها فى ٢٦ يوليو ، ولم يلبث أن سلم لسلطانها ابراهيم رسالة من الملك عمانويل يطلب فيهـــا الاعتراف بالنفوذ البرتغالى على المدينة ، ولكن السلطان بايعاز من سكان المدينة وهم من العرب ، رفض الرضوخ لمطلب الملك عمانويل ، وأخذ يتهيأ للدفاع عن المدينـــة (٦٢) ٠ وهنا نلاحظ أن كابرال لم يتعرض للمدينة بأذى ، اذ كان متأهبا للابحار الى مالندى ، بيد أنه قبل أن يبحر استطاع أن يقنع سكان كلوة أن يسمحوا لنجار سفنـــه أنطونيو فرنانديز بالهبوط الى الشاطىء بسبب مرضه ، وهو أول برتغالى يقيم فى كلوة ، ولم يكن النجار مريضا كما ادعى كابرال ، ولكنه خلفه وراءه كى يكون عينا له على المدينة ويختبـر دفاعها (٦٣) ٠ ثم توجه كابرال الى مالندى ، حيث أحسن سلطانهـــا استقباله ، وزود سفنه بما تحتاجه من مؤن ، كما طلب اليه أن يبقى أياما فى مدينته للاستعانة به على سلطان ممبسة ، وكانت بينهما حروب عديدة ـ كما أشرنا من قبل ـ خسر فيها سلطان مالندى الكثير مـــن رجاله ، فى الوقت الذى كان لايزال يخشى أن ينتقم منه سلطان ممبسة بعد أن أظهر ولاءه للبرتغاليين ، ولكن كابرال لم يطل اقامته فى مالندى ، لرغبته فى مواصلة الابحار الى الهند ، فغـــادرها فى ٧ أغسطس سنـــة ١٥٠٠ م (٦٤) ٠

وصل كابرال الى كاليكوت بعد ابحار استغرق ستة أشهر ، وقدم هدايا للساموري من ملك البرتغـــال ٠ والجدير بالذكر أن كابرال قضى ثلاثة أشهر فى كاليكوت لم يستطع خلالها أن يملأ سفنه بالتوابل عدا سفينتين ، بسبب السياسة المعوقة التى سلكهـــا التجار المسلمون معه ، ولما احتج كابرال على ذلك لدى الساموري ، أصدر الأخير أوامره بمنع أية سفينة اسلامية من تحميل سلعها الا بعد أن تحصل السفن البرتغالية على حاجتها ، وأعطى الحق لكابرال فى الاستيلاء على السفن المخالفة لاوامره ٠ ونتيجة لذلك استولى كابرال على سفينة اسلاميـــة كانت محملة بالتوابل فى ١٦ ديسمبر سنة ١٥٠٠ ، الأمـــر الذى أثار

---

(٦٢) جيان : المرجع السابق ، ص ٢١١ ـ ٢١٢ ٠

(٦٣) تريمنجهام : الاسلام فى شرق أفريقية ، مقدمة العرب ، ص ١٣ ـ ١٤ ٠

(٦٤) جيان : المرجع السابق ، ص ٢١٢ ـ ٢١٣

المسلمين فى كاليكوت ، فاندفع ثلاثة آلاف منهم الى المركز البرتغالى فى المدينة ، وقاموا بقتل مديره أيرييس كوريا Ayres Correa وخمسين من رجاله • وقد رد كابرال على هذا العمل بالانتقام ، فاستولى على عشر سفن اسلامية موسوقة بعد أن ذبح بحارتهـــا ، فى الوقت الذى قصف المدينة بمدافعه • وبعد أن دفعت المدينة الثمن غاليا غادرها متوجها الى كوش وكانانور حيث أوسق بقية سفنه ، وبدأ رحلة العودة الى لشبونة فوصلها فى يوليو سنة ١٥٠١ ومعه ست سفن هى كل ما تبقت من السفن الثلاثة عشر التى بدأ بها رحلته (٦٥) •

وفى ١٠ فبراير سنة ١٥٠٢ أبحر فاسكودى جاما للمرة الثانية قاصدا ساحل شرق أفريقية ، حاملا تعليمات مليكه عما نويل الأول ، وهى الاجهاز على القوى الاسلامية فى الساحل من جهة ، وتحطيم السفن الاسلامية فى مياه ساحل الهند الغربى من جهة أخرى • فوصل موزمبيق فى ١٢ يوليو من نفس العام ، وترك بها احدى سفنه لمراقبة الساحل ، ثم أبحر الى كلوة ولم يلبث أن طلب من صاحبها السلطان ابراهيم (١٤٩٩ ــ ١٥٠٦) أن يعترف بخضوع بلاده لملك البرتغال ، ولما هدده فاسكو بحرق المدينة وتدميرها اذا أصر على عناده ، تراجع السلطان عن موقفه ، وقبل أن يدفع جزية سنوية ضخمة رمزا لخضوعه ، وبذلك فقدت كلوة استقلالها • وهنا نلاحظ أن فرض الجزية على حكام الساحل كان نموذجا لمعاملات البرتغال فى الساحل فاذا امتنع أى حاكم عن دفعها يجرى تدمير مدينته ، أما اذا قبل دفعها ، فكان يترك عادة فى سلام (٦٧) •

ثم كان أن أقلع الأسطول البرتغالى من مياه كلوة الى الساحل الغربى للهند ، واتفق أنه عندما دنا فاسكو من مياه هذا الساحل التقى بسفينة كبيرة تابعة لسلطان مصر المملوكى محملة بالتوابل ، وكـان ركابهـا فى طريقهم الى مكة المكرمة لاداء فريضة الحج ، فقصفها فاسكو بمدافعه ، وبعد

---

(٦٥) Prestage, op. cit., p. 292

(٦٦) جيان : المرجع السابق ، ص ٢١٣ ــ ٢١٤ •

(٦٧) Marsh & Kingsnorth, op. cit., p. 28

أن نهب حمولتها ، وذبح كل ركابها فيما عدا عشرين طفلا ، أمر باغراقها(٦٨)

وفى العام التالى (١٥٠٣) أقلعت حملة من لشبونة بقيادة أنطونيو دى سالدانها لطاردة السفن العربية فى مياه المحيط الهندى ، والعمل على أغراقها ، ولكنه ضل الطريق ، فرسا فى مياه جزيرة سانت توماس الواقعة على خط الاستواء ، وعند رحيله عنها ، انفصلت عن أسطوله سفينة بقيادة لورنزو رافاسكو ، فوصل موزمبيق ، بيد أنه لم يمكث بها الا يوما واحدا على أمل أن يلحق به سالدانها ، ثم توجه الى زنجبار ، حيث قضى بها شهرين ارتكب خلالها العديد من الفظائع ، من ذلك أنه أسر عشرين سفينة عربية موسوقة بالسلع كانت رأسية فى الميناء ، ولم يخل سبيلها الا بعد أن دفع أصحابها جزية ضخمة ، كما تمادى فى اساءة معاملة الأهالى وابتزاز أموالهم ، فلما ضاق سلطان زنجبار ذرعا بأعمال رافاسكو الهمجية ، جهز بضع سفن لمقاومته ، وفى المعركة التى دارت بين الفريقين ، دفعت زنجبار الثمن غاليا ، اذ حصد رافاسكو أهالى المدينة المدافعين بمدافعه ، وكان من بين القتلى ابن حاكم زنجبار ، ومهما يكن من أمر ، فقد انتهى الأمر بعقد اتفاقية صلح ، تعهدت زنجبار بمقتضاها على دفع جزية سنوية من الذهب لملك البرتغال (٦٩) .

ثم أبحر رافاسكو الى ممبسة ، وهناك واصل أعماله الوحشية ، فاستولى على سفينتين موسوقتين بالسلع ، وأسر اثنى عشر مسلما من وجهاء مدينة بروة ، وهم على قدر عظيم من الثراء ، ولم يطلق سراحهم الا بعد أن دفعوا له فدية ضخمة ، كما فرض على المدينة كمية من الذهب ، وفى هذا الوقت وصل سالدانها على رأس أسطوله ، فارتاع الأهالى خشية أن يكرر مافعله رافاسكو ، ولكنه لم يمكث فى ممبسة الا قليلا اذ غادرها مسرعا الى الهند ، لشدة الحاجة اليه هناك (٧٠) .

---

(٦٨) جيان : المرجع السابق ، ص ٢١٤ ـ ٢١٥ ،
Prestage, op. cit., p. 294

(٦٩) جيان : المرجع السابق ، ص ٢١٥ ـ ٢١٦ .

(٧٠) جيان : المرجع السابق ، ص ٢١٦ .

وفى تلك الاثنـاء أدركت البندقية الخطر الذى يهدد مصالحهـا التجاريـة بسبب تحويل طريق التجارة العالمية من البحر الاحمر الى رأس الرجاء الصالح، فأرسلت سلسلة من وكلائها السريين الى لشبونة ، الذين نقلوا اليها أن التوابل الهندية تصل تباعا الى البرتغال ، ومنها الى مدينـة انتويرب Antwerp بالاضافة الى أن الشركات الألمانية والايطاليـة قامت بتأسيس مراكـز تجـارية لهـا فى لشبونـة لاسـتبدال نحاسهـا بمحاصيل الهند • وعندئذ أرسلت البندقية سفارة الى قانصوه الغورى (١٥٠١ — ١٥١٦) سلطان مصر المملوكى لحثه على القيام بعمل يكفل حماية مصالحه ومصالح البندقية • والواقع أن سلطنـة المماليك آنذاك كانت منهكة القوى ، فقد ترتب على تحويل طريق التجارة العالمية أن فقدت المورد الأساسى الذى اعتمدت عليه واستمدت منه قوتها • ويبدو أن السلطان الغورى كان عاجزا عن القيام بعمل حربى من شأنه منـع البرتغاليين من التعرض بسوء للسفن الاسلامية فى المحيط الهندى ، ومن ثم لجأ الى الأساليب السياسية ، فبعث بسفارة الى البابا برآسة الراهب مورودى سان برناردينو مقدم دير سانت كاترين فى سيناء ، فوصلت الى روما فى سنة ١٥٠٤ ، وقام الراهب بتسليم رسالة الى البابا ، جـاء فيها أن السلطان قد ضاق ذرعا بالاعمال العدائية التى يرتكبها البرتغاليون (٧١) ، ومالم يكفوا عن تلك الأعمال ، فانه سيقوم من جانبه مضطرا بقتل جميع الفرنج المقيمين بدولته تجارا ورهبانا ، كما سيقوم بغلـق كنيسة القيامة ، ولاشك أن ذلك التهديد قد أفـزع البابا ، وأنـه رأى وجوب التدخل لحماية حجاج الفرنج ، وللعمل على أن تظل كنيسة القيامة مفتوحة فى وجوههم ، ومن ثم زود البابا السفارة بكتـاب الى ملـك البرتغال (٧٢) ، وكانت تفاصيل هذه السفارة قد وصلت أخبارها الى

---

(٧١) Prestage, op. cit., p. 295

(٧٢) Miles, op. cit., p. 140;

Hrbek, Egypt, Nubia and Eastern Deserts, in Cambridge Hist. of Africa, ed. by Fage & Oliver, Vol. 3, pp. 62 — 63;

أحمد دراج : المماليك والفرنج فى القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى، ص ١٣٤ •

ملك البرتغال ، فلم يتأثر بذلك التهديد الأجوف ، مما جعله يحتفظ بقوة ضخمة دائمة فى الشرق تحت قيادة ضابط برتبة عالية ، لمواصلة الحرب لا مع المسلمين فى الهند فحسب ، بل أيضا مع المماليك • وعلى أية حال ، وصلت سفارة مورو الى لشبونة فى يونيو سنـــة ١٥٠٥ ، حيث قابلت الملك عمانويل الاول ، ولكنها لم تنجح فى مسعاها ، بل لم يلبث عمانويل أن أرسل حملة من لشبونة بقيادة فرانسسكو دالميدا ، وهو أول من عين حاكما عاما للمستعمرات البرتغالية فى الهند ونائبا الملك البرتغالى (٧٣)•

وتوضح حملة دالميدا السياسية الإستعمارية الجديدة التى بـــدأت البرتغال تعمل على تنفيذها فى مناطق ساحل شرق أفريقية فى تلك المرحلة ، ذلك أن عمانويل الاول لم يقتنع بفرض جزية على حكام الساحل المسلمين بل أصدر أوامره باخضاع كل مدن الساحل وتزويدها بالقلاع والحصون ، وترك حاميات بها لفرض السيطرة البرتغالية بالقوة من ناحية ، وحراسة الطريق المؤدى الى الهند من ناحية أخرى • وتنفيذا لتعليمات مليكـــه قاد دالميدا أسطولا ضخما من لشبونة مؤلفا من اثنتين وعشريـــن - أو ثلاث وعشرين - سفينة فى ٢٥ مارس سنة ١٥٠٥ •، ولم يكد دالميدا يصل الى كلوة فى يوليو من نفس العام ، حتى أسرع سلطانها ابراهيم بالفرار الى الداخل خشية أن يقع فى أيدى دالميدا • وكان أن دخل دالميدا المدينة على رأس قوة مؤلفة من خمسمائة جندى ، وانصرف الى تدعيم سيطرته ببناء حصن أطلق عليه حصن سنتياجو ، وترك به حاكما وحامية مؤلفة من مائة وخمسين جندى لحراسته (٧٤) • وثمة شاهد عيان ألمانى أو هولندى كان مرافقا لدالميدا فى حملته ، وقد ترك لنا وصفا عما أحدثه دالميدا بمدينة كلوة ، اذ بعد أن قصف المدينة بمدافعه وأشعل فيها النار وسط دهشة السكان وهلعهم ، « نزل نائب الملك الى الساحل ومعه بعض الآباء الفرنسسكان حاملين صليبين فى موكب وهم ينشدون To Deum وتوجهوا جميعا الى قصر السلطان ، حيث ثبتوا صليبا ، وصلى القائد

---

(٧٣) Sykes, Hist. of Exploration, pp. 111 — 112

(٧٤) جيان : المرجع السابق ، ص ٢٢٢ - ٢٢٤ ،
Prestage, op. cit., p. 296

البرتغالى ، ثم مالبث أن أمر جنوده بنهب المدينة ، فأتوا على مافيها من سلع ومؤن (٧٥) » ٠

ثم أبحر دالميدا متجها الى ممبسة فى ٨ أغسطس من نفس العام ، وعند وصوله اليها أرسل الى حاكمها يدعوه الى الاعتراف بسيادة البرتغال فلما رفض شن دالميدا هجوما قاسيا على المدينة ، انتهى الى تدميرهـا واضرام النار فيها ، وبذلك خضعت المدينة (٧٦) ٠ ويذكر نفس شاهد العيان أن دالميدا « أعطى أوامره لجنده بنهب المدينة ، ونقل ماتقع عليه أيديهم الى السفن ، ووعد كل جندى بالحصول على جزء من عشرين مما ينهبه بما فى ذلك الذهب والفضة والجواهر ، ونتيجة لذلـك استولى البرتغاليون على كميـات ضخمة من القماش المصنوع من القطن والحرير الفاخر والأقمشة الموشاة بخيوط الذهب ، فضلا عن السجاد الثمـين ، الذى كان من بينه واحدة لا يدانيها فى الجمال أية سجادة ولذلك اختص بها ملك البرتغال ومعها أشياء أخرى ثمينة (٧٧) » ٠ ومما يذكر أن سلطان ممبسة بعث برسالة الى سلطان مالندى فى أعقاب الخراب المدمر الذى ألحقه دالميدا بمدينته يقول فيها أن السواحيليين والعرب فى ممبسة عندما عادوا الى مدينتهم لم يجدوا فيها أثرا للحيـاة ، فقـد قبض البرتغاليون على كل من لم يتمكن من الهرب من النسـاء والرجـال والأطفال ، وأحرقوا بعضهم (٧٨) ٠ وعلى أية حال ، أبحر دالميدا من ممبسة الى الهند ، بعد أن قام بأعمـال النهب والسلب والاعتـداء على الآمنين من أهالي مدن الساحل ٠

وعلى حين كان البرتغاليون ينزلون الضربات تلو الأخرى بمدن ساحل شرق أفريقية ، بدأوا يوجهون جهودهم الى اغلاق منافذ المحيط الهندى التى تصله بقلب العالم العربى ، مثل مضيق هرمز عند مدخل الخليج العربى ، ومضيق عدن عند مدخل البحر الأحمر ٠ ولهذا الغرض أرسل عمانويل الأول حملة بقيـادة تريستان

---

(٧٥) Davidson, Africa in History, p. 183

(٧٦) جيان : المرجع السابق ، ص ٢٢٤ ٠

(٧٧) Davidson, op. cit., p. 183

(٧٨) باسيل دافيدسون : أفريقية تكتشف من جديد ، ص ٨١ ٠

داكنها Tristao Da Cunha في٦مارس سنة١٥٠٦ ، وأمره بالتوجه الى جزيرة سوقطرة التى تتوسط المسافة ما بين الخليج العربى والبحر الأحمر ، واقامة قلعة فيها لمنع السفن الاسلامية من دخول ومغادرة البحر الأحمر من ناحية ، واستخدامها محطة بحرية للاسطول البرتغالى من ناحية أخرى (٧٩) . وعند وصول داكنها الى مالندى رحب به حاكمها ، وأخذ يكرر على مسامعه المعاملة السيئة التى يلقاها من جيرانه بسبب ولائه للبرتغاليين ، ولكن داكنها لم يلبث أن غادر ما لندى شمالا الى الغوجة ، فلما بلغها طلب الى صاحبها مقابلته ، ولكنه اعتذر بوصفه تابعا لسلطان مصر المملوكى ، وأن هذه الصفة لا تسمح له بمفاوضة خصومه ، فما كان من داكنها الا أن دمر المدينة وبعد أن نهبها اشعل النار فيها (٨٠) .والجدير بالذكر أن المصادر البرتغالية هى التى انفردت بسرد تلك الرواية ، فى حين أن المصادر العربية لا تشير الى وجود علاقات سياسية مباشرة مع تلك البلاد البعيدة ، ومع ذلك فان تلك الرواية تعتبر خير شاهد على الشهرة الواسعة التى تمتعت بها مصر فى منطقة المحيط الهندى (٨١) . ثم كان أن أبحر داكنها الى مدينة لامو ، فخشى أهلها أن يلحق بها من الدمار ما لحق بغيرهم من أهالى الساحل ، وتعهد بدفع جزية سنوية من الذهب . ثم قصد داكنها بروة ، وكانت من أعظم مدن الساحل ازدهارا وتجارة رائعة ، فلما ظهر بأسطوله أمامها ،وقف صاحبها موقفا عدائيا منه ، اذ خرج الى الشاطىء ومعه ستة آلاف محارب ، وجرى اشتباك عنيف انتهى بانتصار البرتغاليين الذين إستخدموا مع الأهالى أقسى أساليب البطش والتعذيب ، وفضلا عن ذلك قاموا بنهبها واحراقها ، مما جعل السكان ينسحبون الى التلال المجاورة (٨٢) . ثم أبحر داكنها الى مقديشيو ، وكانت أخبار الفظائع التى ارتكبها فى بروة قد وصلت الى أهالى مقديشيو ، فاستعدوا للمقاومة ، واستطاعوا الوقوف فى وجه البرتغاليين ، وقد ساعدهم على ذلك مناعة المدينة وقوة

---

(٧٩) Wilson, op. cit., p. 112; Miles, op. cit., p. 141

(٨٠) جيان : المرجع السابق ، ص ٢٤٥ ـ ٢٤٧ ،
Oliver & Mathew, op. cit., p. 134

(٨١) Hrbek, op. cit., pp. 85 — 86

(٨٢) جيان : المرجع السابق ، ص ٢٤٧ ـ ٢٤٩ ، ص ٣٢٢ ،
Davidson, op. cit., p. 183

تحصينها ، ومما يذكر أن مقديشيو ظلت محتفظة باستقلالها طوال سيطرة البرتغاليين على مناطق الساحل (٨٣) • ثم كان أن أبحر داكنها الى سوقطرة ، فاستولى عليها،ومنها توجه الى الهند •

وكان ألفونسود البوكيرك قد رافق حملة داكنها على رأس أسطول منفصل ، وكانت التعليمات التى زودها به مليكه عمانويل الأول تقضى بالاستمرار فى سياسة التوسع التى وضعتها البرتغال فى الشرق على حساب المسلمين ، كما أعطاه تفويضا بتعيينه نائبا للملك وحاكما عاما للهند خلفا لالميدا ، وقد أقلع من لشبونة فى ٦ مارس سنة ١٥٠٦ ، وربما كانت أهمية هذه الحملة هى أنها استولت على هرمز ، وبذلك سيطرت البرتغال على الخليج العربى (٨٤) • وفى هذا الصدد يقول المؤرخ يحيى بن الحسين (٨٥) : « وفى هذه السنة (٩١٣ هـ) استولى الافرنج (أى البرتغاليين) على بندر هو رمز ، وأمنوا من فيه من المسلمين والتجار المسلمين ، ووصل الخبر بذلك الى اليمن » •

وقبل أن يتولى البوكيرك منصب حاكم الهند العام فى نهاية سنة ١٥٠٩ خلفا لالميدا ، رأى السلطان قانصوه الغورى أن يلجأ الى سياسة القوة لمنع البرتغاليين من التعرض بسوء لسفن المسلمين ، لاسيما بعد أن فشلت سفارة مورو فى مهمتها • ولهذا السبب شيد أسطولا ضخما فى أوائل سنة ١٥٠٧ ، وفى القتال الذى نشب بين المماليك والبرتغاليين فى مارس سنة ١٥٠٨ بالقرب من شول على الساحل الغربى للهند انتصر المماليك ، ولكن لم يلبث أن انتقم البرتغاليون لأنفسهم،اذ أحرزوا نصرا حاسما على الاسطول المملوكى فى موقعة ديو البحرية فى فبراير سنة ١٥٠٩ (٨٦) • وبذلك سيطر البرتغاليون على مياه المحيط الهندى ، وبالتالى فقد ساحل شرق أفريقية مكانته التجارية ، وبات يعانى تدهورا سريعا متواصلا •

---

(٨٣) Oliver & Mathew, op. cit., p. 134

(٨٤) Prestage, op. cit., p. 298;
Miles, op. cit., pp. 140 — 141

(٨٥) غاية الأمانى فى أخبار القطر اليمانى ، حـ٢ ص ٦٣٦ •

(٨٦) Hrbek, op. cit., p. 63; Prestage, op. cit., p: 297;
زين الدين : تحفة المجاهدين ، ص ٤٠ — ٤١ •

وأخيرا نصل الى القول أن البرتغاليين نجحوا فى السيطرة على الساحل فى أوائل القرن السادس عشر ، ولكن هذا النجاح كلفهم الكثير ، ذلك أن أعدادهم قليلة كانت عاجزة عن ضبط أمور ساحل طويل ممتد كهذا الساحل ، فى الوقت الذى كانوا لا يستطيعون الاعتماد على عرب الساحل ، لما يضمرونه لهم من أهمية • ونتيجة لذلك ، فان المستوطنات العربية القديمة التى فقدت مصالحها التجارية الواسعة قد أصيبت بالشلل ، وصارت أكثر فقرا وضعفا ، حدث ذلك فى موزمبيق وكلوة وسفالة ، التى كانت تتمركز فيها الحاميات والقلاع البرتغالية • أما مدن الشمال ، فقد اختلفت أمورها الى حد ما ، اذ أبقى البرتغاليون على الحكام المحليين ، واكتفوا بفرض جزية سنوية عليهم (٨٨) •

ولسنا هنا فى مجال الحديث عن أحداث البرتغاليين خلال وجودهم فى الساحل ، اذ لا يدخل ذلك ضمن موضوع هذا الكتاب ، ولذلك نكتفى بالقول أن البرتغاليين رغم أنهم استأثروا وحدهم بتجارة ساحل شرق أفريقية ، تدفعهم أحلامهم الاستعمارية الى نهب أكبر قدر ممكن من ثروات هذا الساحل ، الا أنهم فشلوا فى تحقيق هذا الغرض ، حتى لقد بدت شكاوى مبعوثيهم الرسميين الى مناطق الساحل تصل الى ملك البرتغال فى سنة ١٥١٢ تنعى ضآلة ما استطاعوا نهبه من هذه الثروات ، لقد واجهتهم فى بادىء الامر مقاومة سلبية • ومما يدل على ذلك أن التجار فى سفالة بدأوا ينسجون ملابسهم القطنية بأنفسهم ، حيث لم يعد باستطاعتهم جلبها من الهند الا عن طريق البرتغاليين ، فى الوقت الذى انعدم ورود الذهب من الداخل ، بسبب الحروب المتصلة بين القبائل هناك ، وكان الامر بالنسبة للبرتغاليين يتطلب توسعا الى الداخل ، وهو أمر لم يكن باستطاعتهم تحقيقه آنذاك نظرا لما يكتنفه من صعوبات (٨٩) •

---

(٨٧) Oliver & Mathew, op. cit., p. 135

(٨٨) Marsh & Kingsnorth, op. cit., pp. 29 — 30

(٨٩) باسيل دافيدسون : افريقية تكتشف من جديد ، ص ١٢٤ ـ ١٢٥ •

الفصـــل الرابــع

المراكز المعربية الاسلامية فى ساحل شرق افريقية

- مقديشـــيو •
- بـــراوة •
- لامــو •
- مالنـــدى •
- ممبســـة •
- زنجبـــار •
- كـــلوة •
- موزمبيق •
- جزائر القمر (الكومور) •
- مدغشقر (ملاجاشى) •

رأينا فيما سبق أن العرب شيدوا مدنا على الساحل الشرقى لأفريقية وكانت هذه المدن مستقلة بطبيعة الحال احداها عن الأخرى ، وتشبه الى حد بعيد المدن الحرة ، التى أنشأها الاغريق والفينيقيون فى جهات مختلفة من البحر المتوسط(١)٠على أن أهم ميزة تمتعت بها تلك المدن هو الموقع الجغرافى الذىحملها على الاتجاه الى البحر ، أى الى التجارة ، خاصة مع شبه الجزيرة العربية ٠ والعجز عن تحقيق الوحدة السياسية يرجع الى تكوين هذه المدن من بطون عربية مختلفة ، لم تتحد فى شبه الجزيرة العربية ، فضلا عن اختلاف المذاهب الدينية من زيدية الى اباضية الى سنة ، ثم التوجيه الجغرافى للمدن نفسها لم يمل عليها أن تندمج فى نظام سياسى موحد(٢)٠وقد تزدهر مدينة من مدن الساحل ، وتصبح أكثر أهمية فى فترة وتسيطر على كثير من مدن الساحل ، مثل مدينة كلوة التى فرضت نفوذها على معظم مدن الساحل من مالندى شمالا الى كلوة جنوبا فيما عدا زنجبار حوالى عام ١٣٣٠ م ، وكذلك حاولت كل من مقديشيو وبمبا وزنجبار فى أوقات متفرقة أن تفرض قيام وحدات سياسية ترتكز على التفوق (٣) ٠

وهنا نلاحظ أن المدن أو المستوطنات العربية الاسلامية قد أقيمت على الجزر ، على الرغم من أن بعضها مثلممبسة كانيفصلها شريط ضيق منالمياه عن البر الرئيسى ، ويرجع السبب فى ذلك الى أن المستقرين كانوا يخشون غزو القبائل البدائية الآتية من داخل القارة (٤) ٠ وترتب على استقرار العرب المهاجرين الى الساحل ارتباط قوى بينهم وبين الافارقة ، اذ اعتاد الافريقى أن يرى أحفاد المهاجرين العمانيين واليمنيين وغيرهم ويألف رؤيتهم ، مما أدى الى

---

(١) جلال يحيي : العرب فى شرق أفريقيا ، مجلة نهضة أفريقية ، العدد ٢٢ ، سبتمبر ١٩٥٩ ، ص ٨ – ٩ ٠

(٢) حسن أحمد محمود : الاسلام والثقافة العربية فى أفريقية ، ص ٤٣١ – ٤٣٢ ٠

(٣) جمال زكريا قاسم : الأصول التاريخية للعلاقات العربية الأفريقية ، ص ٧٣ ٠

(٤) Marsh & Kingsnorth, A Hist Of East Africa, p. 18

توثيق عرى المودة والوئام بينهما (٥) • ولهذا أحس ابن بطوطة عنـــدما زار الساحل فى سنة ١٣٣١ بأنه بين اخوانه المسلمين (٦) •

وقد ازدهرت المدن العربية الاسلامية فى الساحل ازدهارا حقيقيا فى الثراء والغنى ، وزاد الاسلام رسوخابين أهلها • وكانت تلك المدن لا تختلف عن مثيلاتها فى معظم الدول البحرية فى أوربا والهند فى العصور الوسطى ، غير أنه لم يبق من هذه المدن الا شهرتها لأنها اختفت بأكملها تقريبا ، ولقد فقد بعض هذه المدن تماما ، ولكن البعض الآخر منها لا يزال باقيـا أطـلالا أو تلالا من الحطــام المطمور (٧) • وعندما أتى البرتغاليون الى الساحل أدهشهم تلك المدن ونالت اعجابهم ، اذ كانت منازلها العالية تحيط بها أسوار متينة تعلوها القصور ، وقد فرشت تلك القصور بالسجاد الرائع من أصفهان وجوجرات ، وغطت جدرانها بالتحف الجميلة الواردة من مملكة سونج الصينية ، والأطباق المزخرفة من العراق وفارس (٨) • والخلاصة أنه لولا الغزو البرتغالى التى نكبت به تلك المدن فى أواخر القرن الخامس عشر ، وما تبع ذلك من تداعيها وانهيارها ، لـكان مقدرا لهـا أن تمضى شوطا بعيدا فى طريق الازدهار الحضارى ، بالاضافة الى استكمال واجبها العظيم فى نشر الاسلام والثقافة العربية فى داخل أفريقية على نحو أنقى وأعظم مما هو الآن •

مقديشـــــيو :

أما مدينة مقديشيو ــ عاصمة الصومال وميناؤها الرئيسى ــ الواقعة على ساحل المحيط الهندى ، فقد دخلها الاسلام مبكرا ، وكانت جسرا هاما للعرب والاسلام فى تسربهم عبر مناطق القبائل من الشرق والجنوب الى الحبشــة • ويقول ياقوت الحموى (٩) • فى معرض حديثه عنها : « مقديشيو مدينة فى أول بلاد الزنج فى جنوب اليمن ، على ساحل البحر ، وأهلها كلهم غرباء ليســـوا بسودان ، ولا ملك لهم انما يدبر أمورهم المتقدمون على اصطلاح لهم » • وممـا

---

(٥) جيان : وثائق جغرافية وتاريخية ، ص ٢٢٢ ــ ٢٢٣ •

(٦) Marsh & Kingsnorth, op. cit., p. 22.

(٧) باسيل دافيدسون : أفريقية : أفريقية تكتشف من جديد ، ص ٨١ •

(٨) Davidson, Africa in History, pp. 180 — 181

(٩) معجم البلدان ، المجلد الخامس ، ص ١٧٣ •

يذكر أن هجرات العرب الى سواحل أريتريا والصومال كانت مستمرة منذ عصور موغلة فى القدم ، ويبدو أن العرب كانوا قد تعودوا أن يجدوا فى هذه السواحل ملجأ يلوذون به من ظروف الحياة القاسية التى قضت بها طبيعة بلادهم وأساليب الحياة فيها ، فضلا عن ذلك كانوا يجدون فى هذا الساحل فرصا كثيرة لكسب الرزق باحتراف التجارة وسائر المهن الحربية المختلفة ، على أن ساحل الصومال كان افضل الى العرب من ساحل أريتريا ، لقرب المسافة بينه وبين بلادهم ، فهاجرت اليه جماعات عربية كثيرة ، وكانت قبائل الصومال سكان البلاد الأصليون ، يقيمون فى الأجزاء الداخلية من هذا الساحل ، على حين كان العرب المهاجرون يستوطنون المناطق المطلة عليه • ولا شك أن هجرات العرب الى مقديشيو أخذت تزداد بمضى الزمن بحكم الروابط السياسية والدينية والاقتصادية ومن أشهر الهجرات تلك التى قدمت من الأحساء (١٠) •

وأقدم الآثار اليوم فى مقديشيو منارة الجامع الكبير الاسطوانية الشكل ، وقد شيد هذا الجامع فى أول المحرم سنة ٦٣٦ هـ (١٤ اغسطس ١٢٣٨) ، ويثبت هذا الكتابة التاريخية المنقوشة بخط النسخ والمثبتة على أحد أبواب الجامع القديم الذى اندثر ، وشيد مكانه المسجد الحالى فى القرن التاسع عشر • وفى مقديشيو مسجدان قديمان : مسجد فخر الدين ، ومسجد أربع الركن ، وللمسجد الأول « قبلة » تحتوى على لوحة رخامية ، تحيط بها كتابة باسم الحاج ابن محمد بن عبد الله ، وهو على ما يبدو اسم الصانع الذى قام بصنعها ، وينسب بناء المسجد الى أول سلاطين مقديشيو أبو بكر بن فخر الدين ، وتطل واجهة المسجد الرئيسية نحو الشرق ، وله ثلاثة أبواب • وعلى مقربة من هذا المسجد يقوم مسجد أربع الركن ، وقد نقش على قبلته كتابة تدل على مؤسسه « خسرو بن محمد الشيرازى » مؤرخة ٦٦٧ هـ (١٢٦٨ ـ ١٢٦٩) ، وهناك مساجد أخرى أحدث عهدا (١١) •

---

(١٠) عبد المجيد عابدين : بين الحبشة والعرب ، ص ١٥٠ ـ ١٥٢ •

(١١) Tamrat, Ethiopia, the Red Sea and Horn, pp. 136 — 137;

جيان : المرجع السابق ، ص ١٨٦ ، عبد الرحمن زكى : الاسلام والمسلمون فى شرق أفريقية ، ص ٧٥ •

وفى النصف الثانى من القرن الثالث عشر ، أسس أبو بكر فخر الدين سلطنة وراثية فى مقديشيو ، بمساعدة أقوى القبائل العربية الصومالية ، قبائل المقرى التى تزعم أنها قحطانية النسب • وفى عهد هذه الأسرة فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، ازدهرت هذه الامارة وبلغت ذروة عظمتها (١٢) ، وأصابت قدرا كبيرا من الثروة • وقد زار الرحالة ابن بطوطة (١٣) سلطان مقديشيو ــ وهو من أسرة فخر الدين ــ الذى يلقبه رعاياه بالشيخ فى عام ١٣٣١ ، وقدم وصفا حيا عن مدينة مقديشيو آنذاك ، قال : « ووصلنا مقديشيو ، وهى مدينة متناهية فى الكبر ، وأهلها لهم جمال كثيرة ينحرون منها المئين فى كل يوم • ولهم أغنام كثيرة ، وهم تجار أقوياء • وبها تصنع الثياب المنسوبة اليها التى لا نظير لها ، ومنها تحمل الى ديار مصر وغيرها • ومن عادة أهل هذه المدينة أنه متى وصل مركب الى المرسى تصعد الصنابق وهى القوارب الصغار اليه ، ويكون فى كل صنبوق جماعة من شبان أهلها ، فيأتى كل واحد منهم بطبق مغطى فيه الطعام ، فيقدمه لتاجر من تجار المركب ، ويقول : هذا نزيلى ! وكذلك يفعل كل واحد منهم • ولا ينزل التاجر من المركب الا الى دار نزيله من هؤلاء الشبان ، الا من كان كثير التردد الى البلد وعرف أهله ، فانه ينزل من حيث شاء • فاذا انزل عند نزيله باع له ما عنده واشترى له • ولما صعد الشبان الى المركب الذى كنت فيه جاء الى بعضهم فقال له أصحابى : ليس هذا بتاجر ، وانما هو فقيه ، فصاح بأصحابه وقال لهم : هذا نزيل القاضى ، وكان فيهم أحد أصحاب القاضى ، فعرفه بذلك ، فأتى الى ساحل البحر فى جملة من الطلبة ، وبعث الى أحدهم ، فنزلت أنا وأصحابى ، وسلمت على القاضى وأصحابه ، وقال لى : باسم الله نتوجه للسلام على الشيخ ، فقلت له : اذا نزلت توجهت اليه • فقال لى : ان العادة اذا جاء الفقيه أو الشريف أو الرجل الصالح ألا ينزل حتى يرى السلطان ، فذهبت معهم اليه كما طلبوا » •

ويبدو من رواية ابن بطوطة أن ثمة علاقات تجارية كانت منتظمة بين مصر وساحل الصومال آنذاك ، خاصة تجارة المنسوجات ، التى كانت مصر تستورد

---

(١٢) عبد المجيد عابدين : المرجع السابق ، ص ١٥٣ •
(١٣) الرحلة ، حـ١ ص ١٩٥ ــ ١٩٦ •

أنواعا منها ، كما كانت مقديشيو تستورد المنسوجات المصرية ، ففى وصفه لملابس سكان مقديشيو ، ذكر أنها « فوطة خز يشدها الانسان فى وسطه عوض السراويل ، فانهم لايعرفونها ، ودراعة من المقطع المصرى معلمة ، وفرجية من القدسى (نسبة الى القدس) مبطنة ، وعمامة مصرية معلمة » (١٤) • وفى معرض حديثه عن سلطان مقديشيو ، وصف ملابسه قائلا : « وكان لباسه فى ذلك اليوم فرجية قدسية خضراء ، وهو متقلد بفوطة حرير ، ومعتم بعمامة كبيرة»(١٥) ويمكننا أن نستنتج من ذلك كله أن تجارة الأقمشة كانت رائجة بين مصر والصومال » ولعلها استمرار لهذه التجارة منذ القدم ، على النحو الذى أشار اليه مؤلف كتاب « الملاحة فى البحر الأريترى » ، هذا وقد اختصت مقديشيو بصناعة الغزل ، فكانت تنتج نسيجا قطنيا خشنا ، وأقمشة من وبر الجمل للسوق المصرية (١٦) •

ولعل العبارة الجديرة بالانتباه فى رواية ابن بطوطة ، تلك التى أوردها عن القاضى الذى صحبه الى دار السلطان ، فقد قال : « ولما وصلت مع القاضى المذكور وهو يعرف بابن البرهان المصرى الأصل الى دار السلطان ، خرج بعض الفتيان فسلم على القاضى ، فقال : بلغ الأمانة ، وعرف مولانا الشيخ أن هذا الرجل قد وصل من أرض الحجاز ، فبلغ ••• » (١٧) • ولا شك أن وجود صاحب منصب كبير كهذا من أصل مصرى فى بلاط سلطان مقديشيو ، لخير دليل على مدى ما كانت عليه الروابط بين مصر والصومال من متانة آنذاك •

وهنا يصح أن نكرر أن مقديشيو بفضل مناعتها وقوة تحصينها حافظت على سيادتها ابان الغزو البرتغالى لساحل شرق أفريقية فى أوائل القرن السادس عشر ، وقد ظهر ذلك واضحا فى المحاولة الفاشلة التى قام بها القائد البرتغالى داكنها لاخضاعها •

---

(١٤) الرحلة ، حـ١ ص ١٩٨ •

(١٥) الرحلة ، حـ١ ص ١٩٨ •

(١٦) رولاند أوليفر ، جون فيج : تاريخ أفريقيا ، ص ٤٠ •

(١٧) الرحلة ، حـ١ ص ١٩٨ •

وفى القرن السادس عشر ، تولت أسرة المظفر ـ نسبة الى مؤسسها ـ حكم مقديشيو،وفى عهد هذه الأسرة نمت ثروة مقديشيو نموا محسوسا،فأصبحت بمثابة عاصمة لجميع البلاد المجاورة ، ومركزا للاقاليم العربية الصغرى ، التى كانت تسكنها على طول الساحل عشائر أهلها من مقديشيو • كما بدأت تظهر مدن بركة ومركة وجليب وكندر شيخ (ثغر بالصومال) وجزيرة وارشيخ ، وكان الأهالى يفدون على مقديشيو من تلك البلاد فى مواعيد معينة من السنة ، فيجتمعون فى مسجدها الكبير ، ويقيمون به صلاة الجمعة (١٨) •

براوة :

تقع مدينة براوة على ساحل بنادر جنوبى مقديشيو ، ويبدو أنها لم تكن مدينة قديمة ، بدليل أن أحدا من جغرافيى العرب أو رحالتهم لم يذكرها أو يشير اليها ، ولكنها كانت مدينة عربية هامة حينما وصل البرتغاليون اليها ، ولم يحكمها ملك أو سلطان ، بل كانت خاضعة لطائفة من الزعماء الكبار ، ممن كانوا يشتغلون بالتجارة (١٩) والجدير بالذكر أن الأستاذ تشيرولى Cerulli عثر على نقش باللغة العربية يثبت وفاة أحد المسلمين المقيمين بالمدينة فى سنة ١١٠٤ ـ ١١٠٥ م ، الأمر الذى يؤكد أن مجتمعا مسلما منظورا عاش فى تلك المدينة ، خاصة اذا أخذ فى الاعتبار ما تعتقده قبيلة الحارث العمانية من أنها أنشأت ديارا لها فى مقديشيو وبراوة منذ عام ٩٢٤ م (٣١٢ هـ) (٢١) • وفى حوالى القرن الثالث عشر الميلادى صارت مقديشيو ومركة وبراوة مراكز تجارية مسلمة هامة ، فقد استقر بها الكثير من التجار العرب والفرس ، كما كان الاسلام منتشرا على نطاق واسع بين سكان البلاد الأصليين المقيمين فى المناطق الساحلية أو الأجزاء الداخلية منها • وقد ذكرنا أن القائد البرتغالى داكنها قصف تلك المدينة بمدافعه ، وقتل

---

(١٨) جيان : المرجع السابق ، ص ١٨٤ ـ ١٨٥ •

(١٩) عبد الرحمن زكى : المرجع السابق ، ص ١٥٣ •

(٢٠) Tamrat, Ethiopia, the Red Sea and the Horn, in Cambridge Hist. of Africa, ed by Roland Oliver, Vol.3, p. 137

(٢١) عبد المنعم عامر : عمان فى أمجادها البحرية ، ص ٣٦ •

(٢٢) Tamrat, op. cit., p. 138

كثيرا من اهلها ، مما أجبر بقية الأهالى على الانسحاب الى الداخل بعيدا عن الساحل .

وتمثل جماعة العمرانى أهم سكان براوة ، وبعضهم يعيش فى مفديشيو ومركة وافجوى ، وتظهر فيهم الدماء السامية الى حد كبير ، والراجح أنهم سلالة العرب الذين هاجروا منذ عدة قرون من جنوب شبه الجزيرة العربية ، ولجئوا الى براوة ، ومعظمهم يشتغل فى التجارة والملاحة ، وهم يتكلمون اللهجة السواحيلية المعروفة باسم « حمرانى » (٢٣) .

لامـــو :

سبقت الاشارة الى أن هتشنز قد عثر على كتاب ألفه شيبو فرج بن حمد الباقرى عنوانه « أخبار لامـو » ، تصدى فيه لتاريخ لامـو والهجرات المبكرة الوافدة عليها . فيرى أن الهجرة الأولى كانت لجماعة من أهل الشام لم ترض عن سياسة الحجاج بن يوسف الثقفى ، فهاجرت الى ساحل شرق افريقية . ويبدو أن تلك الجماعة كانت كثيرة ، اذ استطاعت اخضاع السكان الأصليين واقتحام ميناء ويونى المنيع . وفى أعقاب هذه الهجرة ، جاءت جماعة من أهـل عمان الى الساحل ، كان من بينها سليمان وسعيد ابنى عباد الجلندى ، وقـد رأينا أن المهاجرين السابقين على تلك الهجرة فى الساحل قد أقاموا سعيدا بن الجلندى زعيما عليهم .

وعندما صارت مدينة بات القوة الكبرى فى الجزء الشمالى من الساحل منذ منتصف القرن الرابع عشر تحت حكم الأسرة النبهانية من عمان ، توسعت جنوبا فى عهـد السلطان عمر بن محمـد الملقب فومومارى Fumo Mari (ت ١٣٩٢) ، الذى استطاع أن يضم الى نفـوذه المـدن المجـاورة لـه ، لامـو وماندا ومالندى (٢٤) .

---

(٢٣) عبد المنعم الحليم : الجمهورية الصومالية ، ص ١٧٩ ـ ١٨٠ .

(٢٤) Oliver & Mathew, Hist of East Africa, Vol. I, p. 119

مالنـــــدى :

مالندى احدى الجزر الهامة التى يتألف منها أرخبيل لامو ، وهى لامــو ومالندى وبات ، وتنفصل كلا منهــا عن الاراضى الساحلية قنوات ضيقة . ومن المعروف أن معظم أهالى الأرخبيل يرجعون الى أصــل فارسى ، ومازالت بقايا من مبان فارسية الطراز تشاهد الى اليوم فى الجزر الثلاث (٢٥) . وقد عرف تاريخ مالندى من الوثائق التاريخية التى لم يبق منهــا الا القليل ، كما أنه لم يحدث أى كشف أثرى بها ، لأن المدينة الحالية بنيت فوق بقــايا مبانى المدينة القديمة ، ومن المحتمل أن مالندى تأسست فى القرن الثالث عشر الميلادى (٢٦) .

وقد استمدت مالندى شهرتها فى العصور الوسطى من التجارة مع شبه الجزيرة العربية وسواحل الخليج العربى ، فى الوقت الذى كانت لها صــلات تجــارية مع الشرق الأقصى . ففى حــوالى القرن العاشر الميــلادى ، كان الجغرافيون الصينيون على معرفة تامة بمنطقة بوبالى Po Pa Li الواقعة على الساحل الغربى للمحيط الهندى ، كما سمعوا عن الأقوام السود المتوحشين فى مولين Mo Lin ، ومن المحتمل أن منطقة بوبالى مــكانها فى الساحل الصومالى ، أما مولين فهى منطقة مالندى (٢٧) وفى سجلات أسرة « سونج » الصينية سنة ١٠٨٣ م ما يشير الى زيارة ثانية للصين قام بها سفير أجنبى من بلاد تدعى بلاد « الزنج » ، وهى بلاد بعيدة للغاية ، حتى أن الامبراطور تسونج منحه هــدايا مماثلة لتلك التى أهداها اليــه فى رحلته الأولى ، بل أضاف اليها مائتى أوقية من الفضة ، واذا لم تذهب الاكتشافات الأثرية المتوقعة فى المستقبل أبعد من هذا ، فاننــا بالتأكيد نعرف أن هذا المبعوث الأفريقى هو الوحيــد الذى جاء ذكره فى الوثائق الصينية حتى سنة ١٤١٤ ، وهو التــاريخ الذى أرسلت فيه مالندى سفارة للامبراطور الصينى ومعها زرافة كهدية (٢٨) .

---

(٢٥) عبد الرحمن زكى : المرجع السابق ، ص ٥٣ .

(٢٦) Morgan, East Africa, p. 119

(٢٧) Oliver & Mathew, Vol. I, p. 124

(٢٨) باسيل دافيدسون : المرجع السابق ، ص ٧٦ ــ ٧٧ .

وفى القرن الخامس عشر بلغت مالندى شأوا بعيدا فى الازدهار بسبب ضعف سطلنة كلوة ، وما يتبع ذلك من انحسار نفوذها فى الجزء الشمالى من الساحل ، الذى كان المنفذ الوحيد لتجارتها · ذلك أن مدينتى ممبسة ومالندى الواقعتين الى الشمال من كلوة استطاعتا أن تسيطرا على حركة الملاحة فى الساحل المتجهة الى البحر الأحمر من ناحية ، والمتجهة الى الخليج العربى والمحيط الهندى من ناحية أخرى ، وقد ساعد المدينتين ــ ممبسة ومالندى ــ على ذلك أن كلا منهما كانت محطة لوصول السفن وخروجها الى عرض البحر عند قيام الرياح الموسمية(٢٩) · وعندما اتجهت كلوة جنوبا ابان هذا القرن ، وراحت تفرض نفوذها على الحركة الملاحية من مافيا حتى سفالة ، شاركت ممبسة ومالندى والمدن الكبيرة الأخرى كلوة فى ذلك ، بحيث استطاعوا جميعا السيطرة على الأسواق الوسيطة فى التجارة (٣٠) · ولما كانت كلوة هى المستفيدة من ذهب سفالة ، الذى كان بمثابة شريانها الحيوى ، فقد شاركها ممبسة ومالندى هذه الفائدة ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، اذ أصبح لأهلى هاتين المدينتين امتيازات خاصة فى سفالة (٣١) · وعلى أى حال ، ففى بداية القرن السادس عشر يصف المؤرخ البرتغالى باربوسا تجارة مالندى التى قامت على المقايضة بأنها كانت فى أوج ازدهارها ، فكانت السفن المالندية تبحر من كمباى محملة بالأرز والدخن والقمح ، فى الوقت الذى كان تجار كمباى وجوجرات يأتون الى مالندى لشراء الذهب والعنبر والعاج والمواد الراتنجية والشمع ، وبيع ما جلبوه معهم من التوابل والزئبق والأقمشة وغير ذلك من حاصلات الهند (٣٢) ·

وعندما جاء فاسكودى جاما الى ساحل شرق أفريقية على رأس حملته الأولى استقبلته مالندى استقبالا وديا وأبدت تعاونها معه ، وقد دفعها الى ذلك احتدام المنافسة بينها وبين موزمبيق وقيام الحروب بينهما ، وبالتالى وجدت فى البرتغاليين الوسيلة الكافية لردع موزمبيق · على أن هذا السلوك الشائن الذى سلكته مالندى لم يقتصر على ذلك ، اذ لم تلبث أن توطدت

---

(٢٩) Oliver & Mathew, op. cit. Vol. I, p. 124

(٣٠) Oliver & Mathew, Vol. I, p. 133

(٣١) Olivèr & Mathew, op. cit., Vol. I, p. 135

(٣٢) جيان : المرجع السابق ، ص ٣٢٠ ــ ٣٢١ ·

العلاقات بينها وبين البرتغاليين على حساب مدن الساحل ، واستمرت قائمة حتى سقوط النفوذ البرتغالى فى الساحل (٣٣) • وقد أثارت مالندى دهشة البرتغاليين عندما شاهدوها لأول مرة ، اذ لم يدر بخلدهم أن يجدوا مدنا عامرة مزدهرة فى الساحل ، فبهرتهم طرقاتها المستقيمة ، وروعة بيوتها الحجرية ذات الطوابق المتعددة • وكان أهم ما استرعى انتباه البرتغاليين غلبة الطابع العربى على مالندى أكثر من أى مكان آخر زاروه ، وقد أشادوا بالأخلاق الطيبة التى تميز بها أهلها من العرب ، وما هم عليه من رخاء يفوق رخاء أهالى موزمبيق ، اذ كانوا يرتدون الثياب الحريرية والقطنية الرائعة ، ويحملون السيوف والخناجر المكفتة ، على نحو يتميز بدقة الصنع وجمال الذوق• أما نساء مالندى فقد تميزن بثيابهن الفاخرة ، وجمالهن واعتدال قوامهن ، حتى ذاعت شهرتهن وكن مضرب الأمثال فى الجمال ، فقيل فى ذلك : « نساء مالندى وفرسان ممبسة » (٣٤) • كذلك اشتهر أهل مالندى بولعهم بالأعياد والحفلات الموسيقية طلبا للتسلية والترويح (٣٥) •

بات (باتا) :

أما جزيرة بات ، وهى احدى جزر أرخبيل لامو ، فقد عثر فيها على بقايا مبان عليها نقوش عربية ترجع الى ما بين عامى ٩٣٠ هـ (١٤٢٣) و ١٠٢٤ هـ (١٦١٥) ، ويحتمل أن تكون الجزيرة قد اشتقت اسمها من قبيلة الباتوية العربية (٣٦) • ومن المعروف أن أولى الهجرات العربية الجماعية الى تلك المدنية كانت فى عهد الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان (٦٨٥ ـ ٧٠٥ م) وذلك على أثر سياسة التنكيل بالمعارضين للدولة الأموية • وتذكر الروايات المحلية فى بات أنه عندما علم عبد الملك بأخبار تلك الهجرة ، أرسل حملة الى

---

(٣٣) Pearce, Zanzibar, The Island Metropolis of Eastern Africa, p. 59

(٣٤) جيان : المرجع السابق ، ص ٣٢٠ •

Davies, Exploring the World, p. 87 — 88

(٣٥) Elist, The East Africa Protectorate, p. 52

(٣٦) عبد الرحمن زكى : المرجع السابق ، ص ١١٩ •

ساحل شرق أفريقية لنشر الدعوة الاسلامية ، حيث استقرت فى أرخبيل لامو والمناطق التى حوله (٣٧) • وكما سبق أن رأينا أن الأخوين سليمان وسعيد ابنى عباد الجلندى قد ثارا فى وجه الخليفة عبد الملك بن مروان ، ولكن قوات الحجاج بن يوسف الثقفى قد تغلبت على الأخوين وأنصارهما ، فهربوا الى الساحل • ولا يعرف على وجه التحديد أين نزلوا على الساحل ، ومن المحتمل أن يكونوا نزلوا فى بات (باتــا) Pate فى أرخبيــل لامو ، أو فى مدينــة حدابو التى أسسوها شمالا فى ممبسة (٣٨) • وتذكر بعض الروايات المحلية أن الخليفة العباسى المنصور (٧٥٤ ـ ٧٧٥) قد أرســل حملة الى الســاحل لتأديب المدن التى خرجت على طاعته ، فنزلت فى بات (٣٩) •

وطبقا لحوليات مدينة بات بدأت تلك المدينة تأخذ أهميتها منذ وقت مبكر من القرن الثالث عشر ، ويقال أنها فى منتصف القرن الرابع عشر قامت بغزو مدن الساحل ، بما فى ذلك كلوة • والواقع أن المراجع والكشوف الجغرافية لم تؤيد هذه الرواية ، ذلك أن بات لم يكن لها شأن يذكر قبل القرن الرابــع عشر ،وانكانت احتلت مـكانة هامة قبــل الربع الأخــير من القــرن الخامس عشر (٤٠) •

وقد سبقت الاشارة الى أن سليمان بن سليمان بن مظفر النبهانى وفد على ساحل شرق افريقية فى هجرة عربية كبيرة من عمان فى مستهل القرن الثالث عشر الميلادى ، واستطاع هذا الأمير أن يؤسس أسرة حاكمة فى بات ، أطلق على مــن يتولـــى الحكم فيها لقب فومر مادى أوفومومارى ، وهو لقب أفريقى يدل على الزعامة • ومنذ منتصف القرن الرابع عشر امتد سلطان الأسرة النبهانية على معظم المدن الساحلية •

---

(٣٧) Chittick, The East Coast, Madagascar and in the Indian Ocean, in Cambridge Hist. of Africa, Vol. 3, p. 198;
Knappert, Swahili Islamic Poetry, Vol. I, pp. 5 — 6

(٣٨) محمد محمد أمين : تطور العلاقات العربية الأفريقية فى العصــور الوسط ، ص ٤٧ •

(٣٩) Chittick, op. cit., p. 198

(٤٠) Chittick, op. cit., p. 208; Knappert, op. cit., p.6

والجدير بالذكر أن ظهور الأسرة النبهانية في بات وتوسعها في الساحل ، قد ارتبط بأفول ازدهار كلوة في النصف الثاني من القرن الرابع عشر • ويرجع السبب في ذلك الى التغيير الذى طرأ على سلطنة المماليك في مصر في عهد السلطان الظاهر برقوق (١٣٨٢ ـ ١٣٩٩) ، اذ ازداد حجم تجارة المحيط الهندى التى تمر عبر أراضى مصر الى البندقية • وقد كشفت الحفريات الأثرية أن المدن الكينية الواقعة شمال نهر تانا ـ على الأرجح قد اتجهت ناحية مصر منذ أواخر القرن الرابع عشر ، بدليل العملات الفضية المنسوبة الى الظاهر برقوق التي عثر عليها في ميناء عدل وأراضى الصومال وبات • ولعل ذلك يفسر أن الازدهار الفجائى الذى حققته بات يرجع ، وان كان بصورة غير مباشرة ، الى السياسة التجارية الجديدة التى سارت عليها مصر المملوكية ، وهى سياسة لم تستمر طويلا • وينبغى القول أن المدن الساحلية الواقعة جنوب نهر تانا ، كنتيجة للظروف الجغرافية والتاريخية ، ظلت خلال القرن الخامس عشر الميلادى متجهة نحو الخليج العربى والهند (٤١) •

ومهما يكن من أمر ، فان النفوذ الذى مارسته بات على كثير من مدن الساحل لم يستمر طويلا ، ذلك أنه عندما وصل البرتغاليون الى الساحل كانت بات مدينة ثانوية قليلة الشأن • ولذلك عندما هاجمها دالميدا في سنة ١٥٠٦ ، وأطلق عليها قذائف مدافعه ، عجزت عن الصمود والمقاومة ، ووقعت فريسة في أيدى البرتغاليين (٤٢) •

ممبسة :

وصف الجغرافيون المسلمون ممبسة بأنها مقر ملك الزنج ، والمعتقد أن هؤلاء الزنج هم قبائل النيكيا التى كان يعيش منها في ممبسة قبائل الشانجا موى ، والواكيليندينى ، والواتانجاتا • (٤٣) وتروى الروايات المحلية لمدينة

---

(٤١) Oliver & Mathew, Hist. of East Africa, Vol. I, pp. 119 — 120

(٤٢) Ibid., Vol. I, p. 151

(٤٣) Trimingham, Islam in East Africa, pp .13 — 14; والترجمة العربية ، ص ٤٦ ـ ٤٧ •

كلوة أن أول حاكم لكلوة كان على المعروف باسم Nguo — Mingi ، وكان أبوه الحسن بن على سلطان شيراز قد هاجر الى ساحل شرق أفريقية ومعه جماعته على سبع سفن ، ونزلوا فى عدة أماكن على الشاطىء ، وقد حكم على كلوة فى منتصف القرن العاشر الميلادى ، واستمر حكمه أربعين سنة ، وعهد الى ابنه محمد بحكم ممبسة (٤٤) ٠

ويعتبر ما كتبه الرحالة ابن بطوطة (٤٥) عن مدينة ممبسة فى القرن الرابع عشر الميلادى أهم مصدر يصف أحوالها قبل وصول البرتغاليين الى الساحل ، فقد زارها فى عام ١٣٣٢ ، وقال عنها : « فوصلنا الى جزيرة منبسى (ممبسة) ، وهى جزيرة كبيرة بينها وبين أرض السواحل مسيرة يومين فى البحر ، ولا بر لها ، وأشجارها الزيتون ، ولها نوى كنواه ، الا أنها شديدة الحلاوة ٠ ولا زرع عند أهل هذه الجزيرة ، وانما يجلب اليهم من السواحل ، وأكثر طعامهم الموز والسمك ٠ وهم شافعية المذهب ، أهل دين وعفاف وصلاح ٠ ومساجدهم من الخشب محكمة الاتقان ، وعلى كل باب من أبواب المساجد البئر والثنتان ، وعمق آبارهم ذراع أو ذراعان ، فيستقون منها الماء بقدح خشب قد غرز فيه عمود رقيق فى طول الذراع والأرض حول البئر والمسجد مسطحة ، فمن أراد دخول المسجد غسل رجليه ودخل ، وعلى بابه قطعة حصير غليظ يمسح بها رجليه ٠ ومن أراد الوضوء أمسك القدح بين فخذيه وصب على يديه وتوضأ ٠ وجميع الناس يمشون حفاة الأقدام ٠ وبتنا بهذه الجزيرة ليلة ، وركبنا البحر الى مدينة كلوة ٠٠٠ » ٠

ويفهم من هذا الوصف أن مدينة ممبسة فى القرن الرابع عشر كانت صغيرة، مساجدها من الخشب ، وسكانها حفاة ، لايعرفون الزراعة ، فى حين أن المؤرخ البرتغالى ياربوسا وصفها فى بداية القرن السادس عشر وصفا مغايرا مختلفا تماما ،فقد كتب عنها قائلا : « ثمة مدينة اسلامية كبيرة تدعى ممبسة ، وهى جميلة ، ذات بيوت رائعة مبنية بالحجر ومطلية بالكلس ، وشوارعها منسقة على

---

(٤٤) Pearce, Zanzibar, The Island Metropolis of Eastern Africa, p. 43

(٤٥) الرحلة ، حـ١ ص ٢٠٠ ٠

غرار شوارع كلوة ، ويحكمها ملك • وأهالى المدينة ذوى بشرة بيضاء داكنة وبنية ، وتتزين النساء بالحرير والذهب • وممبسة مركز كبير للتجارة ، ولهــا ميناء جيد يعج بالسفن الرائحة والغادية ، تلك التى على أهبة الابحار الى سفالة وزنجبار ومافيا وبمبا ، وتلك الآتية من كمباى ومالندى • وتتميز ممبسة بوفرة المؤن ، والخراف الطيبة ذات الذيل المستدير ، والأبقار ، والدواجن ، والماعز ، والكثير من الأرز والدخن والبرتقال الحلو والحامض والليمون والرمان والتين الهندى ، وكل أنواع الخضروات ، ومياهها عذبة للغاية • وتتراوح علاقة أهالى المدينة بالأفارقة داخل القارة بين عداوة ومودة ، ففى بعض الأحيان يشتبكون فى حروب معهم ، وأحيانا أخرى كانوا يقيمون علاقات طيبة معهم ، ومن ثم يمارسون التجارة معهم ، حيث يحصلون على كميات وفيرة من العسل والشمع والعاج » (٤٦) • ولا شك أن ممبسة عاشت حياتها آنذاك فى رخاء وازدهــــار وثراء ، ويؤكد هذا أن البرتغاليين عندما قاموا بنهبها فى عام ١٥٠٥ أصابـــوا قدرا عظيما من الأسلاب والغنائم ، حتى أن نقلها الى سفنهم استغرق خمسة عشر يــوما • وهكذا تعكس ممبســـة ، من الناحيـــة الاقتصـــادية ، صـــورة قاتمة من التدهور فى القرن الرابع عشر ، فى حين تعكس ممبسة فى بداية القـــرن السادس عشر صورة حقيقية من الرخاء والازدهار • ومن المحتمل أن هذا التغيير يرجع الى أن كميات ضخمة من تجارة الساحل أخذت تشق طريقها عبر مينائها ، ومن المحتمل أيضا أن ممبسة صارت أحد المراكز الرئيسية لتجـــارة جوجرات، وكمباى (٤٧) • وكيفما كان الأمر ، فقد نهض ثراء ممبسة على التجارة ، وقــد ساعد على ذلك أنها كانت تمتلك أروع ميناء فى الساحل ، فكانت سفنها تستورد السلع المصنوعة من الحديد ، ويقوم تجار ممبسة ببيعها للافارقة فى الداخل نظير العاج ، وقد أفاد البرتغاليون من تلك التجارة ، اذ ارتفعت عائداتهم من الرسوم الجمركية التى فرضوها على السفن الآتية من الهند (٤٨) •

ومن المعروف أن ممبسة سلكت مسلكا عدائيا مع البرتغاليين منذ ظهورهم

---

(٤٦) Marsh & Kingsnorth, The Hist. of East Africa, pp. 25 — 26; Pearce, op. cit., p. 65

(٤٧) Chicittick, op. cit., p. 209; Marsh & Kingsnorth, op. cit., p. 26

(٤٨) Oliver & Mathew, Vol. I, pp. 151 — 152

فى مياه ساحل شرق أفريقية ، وقد رأينا كيف سلط عليها دالميدا مدافعه فى سنة ١٥٠٥ ، ثم أضرم النار فى أنحائها . وعلى الرغم من الخراب الذى أصاب ممبسة على أيدى البرتغاليين ، الا أنها لم تستسلم ، وظلت تناصبهم العداء والكراهية ، ويتجسد ذلك فى سلسلة الثورات التى قامت بها ضدهم . ولعل الجدير بالذكر أن أهالى جزيرة كريمبا وقفوا الى جانب ممبسة فى صراعها ضد البرتغاليين . ففى عام ١٥٢٢ وصلت سفينتان حربيتان من البرتغال الى موزمبيق ، وكان حاكم موزمبيق وقتئذ جواو داماتا Joao da Mata ، فأرسل السفينتين فى مهمة على الساحل . وفى تلك الأثناء كان سلطان زنجبار مواليا للبرتغاليين ، ويقوم بجمع الجزية المقررة عليه وعلى المدن التابعة له ، ومن بينها كريمبا ، التى تحالفت مع ممبسة ضد البرتغاليين ، وبالتالى رفضت دفع الجزية المقررة عليها لسلطان زنجبار (٤٩) . وكان هذا السلطان قد شكى مرارا لداماتا بأن ما فعلته كريمبا يجعله عاجزا عن تقديم الجزية المطلوبة ، وعقد وصول السفينتين الى زنجبار أعاد سلطانها شكواه ، فلم يجد داماتا بدا من تأديب كريمبا واخضاعها ، وكان أن قاد حملة اليها ، ولم يلبث أن شن هجوما قاسيا عليها انتهى بتدميرهـا واحراقها ، رغم ما أبداه أهلها من مقاومة صلبة ، شاركهم فيها أهالى ممبسة(٥٠)

على أن الكارثة التى نزلت بأهالى كريمبا ، لم تفت فى عضد أهالى ممبسة ، بل زادتهم اصرارا على مقاومة البرتغاليين ، وقد ساعدهم على ذلك حصانة مدينتهم وموقعها المنيع ، وعلى أى حال ، ففى سنة ١٥٢٨ كان القائد نونو داكنها فى طريقه الى الهند ليباشر مهام منصبه كحاكم عام للهند ، فعرج على زنجبار ومالندى انتظارا للرياح الموسمية ، فشكى اليه الأهالى من اعتداء جارتهم ممبسة على أراضيهم ، وعندئذ قرر التوجه الى ممبسة لتأديبها ، ولما علم أهالى ممبسة بذلك ، بادروا باخراج نسائهم وأموالهم الى داخل القارة بعيدا عن متنـاول مدافع الأسطول البرتغالى ، وكان أن قام البرتغاليون بهجوم مرير على المدينة

---

(٤٩) جيان : المرجع السابق ، ص ٢٦٢ ــ ٢٦٣ .
Pearce, op. cit., pp. 66 — 67

(٥٠) Ingrams, Zanzibar, p. 101

عجز الأهالى عن صده ، فانسحبوا الى الداخل (٥١) · ولما أحس صاحب ممبسة بعجزه عن المقاومة ، خرج من مخبأه ، وعرض على نونو داكنها أن يعقد معه اتفاقية يصير بمقتضاها تابعا للبرتغال ، ويتعهد بدفع جزية سنوية ، فوافق نونو داكنها · ومنذ ذلك الوقت لم تحاول « جزيرة الحرب » وهو اللقب الذى أطلق على ممبسة ، أن تثور على البرتغاليين الا فيما بعد فى أواخر القرن السادس عشر (٥٢) ·

زنجبـــــار :

لفظ زنجبار كلمة مركبة من « زنج » بالعربية ، و « بار » وهى تعنى ساحل بالفارسية ، أى ساحل الزنج ، وقد أطلقها العرب على كل ما عرفوه من ساحل شرق أفريقية · وتتكون زنجبار الحالية من ثلاث جزر رئيسية ، هى زنجبار وبمبا ومافيا ، وعدد آخر من الجزر الصغيرة ، وجميعها متشابهة فى مظاهرها الطبيعية والبشرية · وقد عرفت زنجبار فى اللغة السواحيلية باسم أنجويه ، وكتب على ضروب شتى : لنجويه ، ليخونه ، أنجويه ، لنحويه ، بنجويه ، وقد كتبها ياقوت الحموى (٥٣) لنحويه ، وقال عنها : « هى جزيرة عظيمة بأرض الزنج ، منها سرير ملك الزنج ، واليها تقصد المراكب من جميع النواحى » ·

والمعروف أن الاسلام فى أيامه الأولى دخل زنجبار على أيدى التجار المسلمين، حيث استقر بعضهم فيها ، واختلطوا بأهلها ، الأمر الذى جعلهم دعاة للدين الاسلامى والثقافة العربية · ورغم أن المعلومات عن زنجبار مازالت تنقصنا خلال القرون الأولى من ظهور الاسلام ، الا أن الآثار القليلة التى عثر عليها تشير بوضوح الى الرخاء الذى نعمت به هذه المدينة · فقد بنى المسلمون بها أبنية من الحجر عليها سمات البذخ ، وكانوا يحضرون اليها الحجارة الفاخرة من الصين وسك حكامها نقودهم من النحاس (٥٤) ·

---

(٥١) جيان : المرجع السابق ، ص ٢٦٣ ــ ٢٦٤ ·

(٥٢) Marsh & Kingsnorth, op. cit., p. 30; Pearce, op. cit., p. 67

(٥٣) معجم البلدان ، حـ ٥ ص ٢٣ ·

(٥٤) رولاند أوليفر ، جون فيج : تاريخ أفريقيا ، ص ٤٠ ·

وتمدنا أحداث كلوة بأول معلومات تاريخية عن زنجبار ، ذلك أنه بعد أن تأسست سلطنة كلوة فى سنة ٩٧٥ ، حدث أن أغارت قبائل البانتو المتوحشة على أراضيها ، فهرب سلطانها على بن الحسن الى زنجبار ، بيد أنه لم يمكث طويلا فى زنجبار ، اذ استطاع أهالى كلوة صد القبائل المغيرة ، وأرسلوا يستدعون سلطانهم من زنجبار ، حيث حكم أربعة عشر عاما ، ومن المحتمل أن هذه الواقعة حدثت فى القرن الحادى عشر (٥٥) .

والى جانب هذا تمدنا الآثار بمعلومات جديدة عن زنجبار فى أوائل القرن الثانى عشر . اذ ثمة مسجد فى كيز يمكازى Kizimkazi الواقعة فى جنوب زنجبار ، وهو مسجد قديم من أعجب المبانى فى شرق أفريقية ، ويقع فوق محرابه نقش بالخط الكوفى نصه : « بأمر الشيخ السيد بن عمران مفوم الحسن بن محمد أطال الله حياته المديدة ، اللهم اقض على أعدائه ، تم بناء هذا المسجد فى يوم الاحد من شهر ذى القعدة سنة خمسمائة من الهجرة (الموافق ١١٠٧) (٥٦) . ومن سوء الحظ أننا لا نعرف عن هذا الأثر شيئا أكثر من ذلك ، ومن الأرجح أنه كان أحد حكام زنجبار الشيرازيين ، أو لعله ينحدر من سلالة على بن الحسن — أو الحسن بن على — الذى قام بتأسيس سلطنة كلوة ، وعلى أى حال ، فانه ليس بوسعنا أن نعتبر هذا المسجد الذى لازال أعظم حلية زخرفية فى زنجبار ، الأول من نوعه مما أقامه المستقرين الأوائل ، وان كان يشير بوضوح الى أن زنجبار فى تلك الأثناء كانت ناهضة ومستقرة تماما ، ويبدو أيضا أن كيز يمكازى الواقعة فى الجنوب الأقصى من زنجبار كانت العاصمة المبكرة لزنجبار (٥٧) .

فاذا ما انتقلنا الى القرن الثالث عشر ، يتضح لنا من الروايات المحلية لمدينة كلوة أن زنجبار لعبت دورا فى أحداث تلك المدينة . ذلك أن أحد المطالبين بعرش سلطنة كلوة واسمه سعيد بن حسن ، قد لجأ الى حسن بن أبى بكر سلطان

---

(٥٥) Ingrams, op. cit., pp. 132 — 133; Pearce, op. cit., pp. 43 — 44

(٥٦) Oliver & Mathew, op. cit., Vol. I, p. 107, Morgan, op. cit., p. 203;

عبد الرحمن زكى : المرجع السابق ، ص ٨٢ .

(٥٧) Chittick, op. cit., p. 195; Ingrams, op. cit., pp. 133 — 134

زنجبار طلبا لمساعدته ، فاستجاب له ، وأرسل جيشا برفقته بقيادة أحد أمرائه يدعى زبير ، ولكن الأمير لم يلبث أن تخلى عن سعيد بسبب خلاف قام بينهما ، الأمر الذى يفهم منه أن سعيدا أخفق فى الوصول الى عرش كلوة من جهة ، وأن زنجبار آنذاك كانت دولة مستقلة ذات أهمية من جهة أخرى . بيد أن هــذه الأهمية لم تستمر طويلا ، اذ نجد فى تاريخ مدينة بات فى عهد السلطان عمـر (١٣٣١ ـ ١٣٤٨) أن زنجبار كانت عديمة الشــأن ، حتى أنــه لم يكن لهــا حاكما (٥٨) . ويبدو أن زنجبار قد استعادت نفوذها فى القرن التالى ، اذ تروى حوليات كلوة أن سلطنة كلوة شهدت حالة من الفوضى وعدم الاستقرار لا نعلم عنها الا القليل ، اذ تعرض فضيل سلطان كلوة لتهديد من قبل حسن ابن سلطان كلوة السابق مطالبا بأحقيته فى الحكم ، وفى الصراع الذى نشب بين السلطان ومنافسه ، أرسل سلطان زنجبار فى سنة ٩٠١ هـ (١٤٩٥) مبعوثا من قبلــه لعقد الصلح بين المتنافسين ، على أساس أن يستعيد حسن نفوذه ولقبه السابقين ، بيد أن المبعوث فشل فى مسعاه ، ويروى أنه فى أثناء عودته الى زنجبار ، تقدم حسن على رأس قواته ، وقام بشن هجوم على كــلوة ، ولكنــه لقى هزيمـــة ساحقـــة (٥٩) .

ويبدو أن زنجبار كانت مزدهرة عندما وصل فاسكودى جامــا الى ميـــاه ساحل شرق أفريقية فى سنة ١٤٩٩ ، اذ كان بهــا الخشب السميك والماشـــية الكثيرة ، وكان أهلها المسلمون يتجرون بدرقات السلاحف والعنبر والعاج وشمع العسل والأرز ، كما كانت تصنع بها الحبال من قشور أشــجار جــوز الهنــد ، والأقمشة الحريرية والقطنية (٦٠) . وقد وصفها الملاح ابن ماجــد قــائلا : « زنجبار ممتدة على بر الزنج ، ذات أشجار وفاكهة ، وفيهــا أربعـون خطبـــة (ويقصد بذلك أربعين مسجدا) تحكم عليها سلاطين الاسلام » (٦١) . ومما يذكر أن فاسكودى جاما لم يتوقف فى زنجبار خلال رحلته الى الهند والعودة منها مارا بساحل شرق أفريقية ، اذ تأتى أول اشارة عنها فيما كتبه مؤرخ السفينة

---

(٥٨) Pearce, op. cit., pp. 44 — 45

(٥٩) Pearce, op. cit., p. 45, Ingrams, op. cit., p. 134

(٦٠) جيان : المرجع السابق ، ص ٢١٦ ـ ٢١٧ .

(٦١) كتاب الفوايد فى أصول البحر والقواعد ، جـ ١ ص ٦٩ .

سانت جبرييل بقوله : « وفى يوم الاحد ٢٧ يناير سنة ١٤٩٩ تركنا هذا المكان (شول فى غربى الهند) ، وفى صباح اليوم التالى اقتربنا من جزيرة كبيرة تدعى جامجبار Jamgibar على بعد عشرة فراسخ من الساحل ، وهى مكتظة بالمسلمين ، وفى أول فبراير رسونا أمام جزيرة سانت جورج بالقرب من موزمبيق » (٦٢) .

وكان من الطبيعى أن تفرض البرتغال سيطرتها على زنجبار شأنها فى ذلك شأن بقية مدن الساحل الأخرى . وقد حدث ذلك فى سنة ١٥٠٣ عندما أبحر لورنزو رافاسكو فى سفينته من لشبونة تحت قيادة انطونيو داسلداتها ، واذا انحرفت سفينة رافاسكو عن الطريق المألوف الذى سلكه داسلدانها، أبحررافاسكو الى جزيرة زنجبار ، حيث لجأ الى الاشتغال بالقرصنة ، وذلك بتدمير سفن الداو الاسلامية عند مدخل الميناء . ولما خرج اليه سلطان زنجبار واحتج على أعماله ، رد عليه رافاسكو بأن أطلق قذائف مدافعه على المدينة ، مما أدى الى قتل الكثير من الأهالى ، وكان من بينهم ابن سلطان زنجبار (٦٣) . وفى القتال الذى نشب بين الفريقين ، لم يستطع أهالى زنجبار الاستمرار فى المقاومة . فاستسلموا لرافاسكو وقبلوا أن يدفعوا لملك البرتغال جزية سنوية مقدارها مائة مثقال من الذهب وثلاثين رأسا من الغنم . وقد تصادف أن كانت أربع سفن اسلامية راسية فى الميناء فى ذلك الحين ، فأعطى رافاسكو اثنين منهما لابن سلطان مالندى حليف البرتغاليين الذى كان موجودا فى الميناء – فيما يبدو – وقت الهجوم ، أما الثالثة فقد أفرج عنها رافاسكو بعد أن دفعت فدية ضخمة ، على حين أخذ الرابعة بحمولتها غنيمة لملك البرتغال . ويعلق المؤرخ بيرس على تعبث رافاسكو وتجرمه فى مياه زنجبار بأن ذلك يعتبر من أعمال القرصنة فى العصر الحديث ، ولكنه فى تلك العصور – أواخر العصور الوسطى – كان على العكس من ذلك ، اذ كان القضاء على المسلمين وتدمير ممتلكاتهم عملا جديرا بالتقدير ، وواجب كل مسيحى مخلص ! (٦٤) . ونخرج من ذلك الى أن زنجبار فى السنوات الأولى من القرن السادس عشر ، من الناحية الاقتصادية ، كانت

---

(٦٢) Pearce, op. cit., 57 — 60

(٦٣) Pearce, op. cit., p. 61

(٦٤) Pearce, op. cit. pp. 61 — 62

قليلة الأهمية ، بدليل أن البرتغاليين فرضوا عليها مائة مثقال جزية ، فى حين طالبوا كلوة بدفع ألفى مثقال ، وفرضوا على ممبسة ألفا وخمسمائة (٦٥) ٠

وفى عام ١٥٠٩ زار القائد البرتغالى دوارتى دى ليموس مدن الساحل فى سفينة لجمع الجزية المطلوبة ، ولما كانت حوادث القرصنة والبطش التى ارتكبها رافاسكو فى زنجبار مازالت ماثلة فى أذهان أهالى زنجبار ، فقد رأوا فى ليموس صورة متكررة من رافاسكو ، وبدافع الكراهية الشديدة للبرتغاليين ، أجمع الأهالى على مقاومة ليموس ، وازاء هذا انتقم منهم ليموس بضرب المدينة واحراقها ، مما اضطر الأهالى الى الانسحاب داخل الجزيرة ، ثم قام ليموس ورجاله بنهب المدينة (٦٦) ٠ وعلى أثر ذلك وقعت زنجبار فى مهاوى الركود والانحسار ، حتى أنها عجزت عن دفع الجزية المفروضة عليها للبرتغاليين ٠

كـــلوة :

بدأت كلوة فى الظهور فى النصف الثانى من القرن العـاشر الميلادى ، عندما وفدت عليها هجرة من فرس شيراز بزعامة الحسن بن على الشيرازى، وكانت كلوة آنذاك جزيرة صغيرة يعيش فيها شيخ مسلم اسمه « موريرى وبارى » ، ولما قابله الحسن عرض عليه رغبته فى شراء كلوة مقابل أقمشة كانت معه، فاتصل موريرى بزعيم أمولى Amuli وهو صاحب الجزيرة ، فوافق على بيعها شريطة أن يحيط الحسن الجزيرة كلها بالقماش ، فقبل الحسن وقدم له القماش المطلوب، وعاش الحسن ورجاله وذويه فوق الجزيرة التى أطلق عليها «كلوة كيزيوانى» – ومعناها الحقيقى «على الجزيرة» – تمييزا لها عن كلوة كيفنجى الواقعة على الساحل شمالى الاولى (٦٧) ٠ وهكذا بدأت كلوة حياتها الاولى وتطورت حتى صارت من أعظم مدن ساحل شرق أفريقية ٠ وينبغى القول أنه مهما قيل عن تلك الهجرة من أنها واحدة

---

(٦٥) Trimingham, op. cit., p. 18

(٦٦) Pearce, op. cit., p. 63

(٦٧) Pearce, op. cit., pp. 42 — 43;

ترمنجهام : الاسلام فى شرق أفريقية ، مقدمة ، المعرب ، ص ١٠ – ١٢ ٠

عبد الرحمن زكى : المرجع السابق ، ص ٧٩ – ٨١ ٠

من قصص الادب الشعبى الشيرازى، أو أن طابع الخرافة يحيط بأحداثها، الذى لاشك فيه أنها تستند الى أساس من الحقيقة ، وقد أكدت الاحداث التاريخية التالية حدوثها ، خاصة اذا أخذنا فى الاعتبـار أن المهاجريـن الاوائل - عربا وغير عرب - الى الساحل كانوا يفضلون المعيشة فى الجزر أكثر من أى مكـان آخر ، لسهولـة الدفاع عنها، ولبعد موقعهـا عن اعتداء الافارقة الاصليين فى البر الافريقى، اذ كان عليهم اذا أرادوا شن هجوم على المهاجرين أن يخوضوا المـاء الفاصل بين الساحل والجزيرة •

واذا أخذنا بما ذكرته الروايات المحلية من أن كلوة كان بهـا مسجداً عندما وفد عليها الشيرازيون، فلا شك أن هذه المعلومة هامة، اذ توضح لنا أن مسلمين آخرين قد شقوا طريقهم الى كلوة واستقروا بها قبل النصف الثانى من القرن العاشر (٦٨) •

وخشية أن تتعرض جزيرة كلوة لهجوم من قبل الافارقة ، قام الوافدون الجدد بتعميق المجاز الذى يفصل بينهم وبين البر الافريقى ليجعلوا منـه مانعا يصعب عبوره • ولما مات الحسن بن على خلفه فى الزعامة والسلطنة ابنه على ، الذى أخذ يعمل على توسيع دائرة نفوذه فى الساحل ، فهاجم جزيرة مافيا المجاورة وضمها لسلطانه دون أن يشتريها ، كما فعل أبـوه فى كلوة • وفى عهده اعتدى الافارقة الوثنيون على الجزيرة فى حوالى سنة ١٠٢٠م ، وتغلبوا عليه ، فاضطر للهرب الى زنجبار ، بيد أنه بعـد فتـرة قصيـرة استطاع أن يجمع شتات جنده ، وعاد بهم الى كلوة ، واسترد ملكه (٦٩)•

ازدهرت كلوة فى القرن التالى ، واكتسبت ثروتها من تجارة الذهب ، وكانت مقديشيو تحصل على هذا المعدن من سفالـة ، وقد رأى داود بـن سليمان سلطان كلوة (١١٣٠ - ١١٧٠) أنه أحق بهذا الذهب من مقديشيو، فبعث سفنه الى سفالة ، وبذلك قضى على تجارة الذهب فى مقديشيو ، وصارت

---

(٦٨) Pearce, op. cit., p. 43

(٦٩) Marsh & Kingsnorth, op. cit., pp. 22 — 23

عبد الرحمن زكى : المرجع السابق ، ص ١٢٣ •

الزعامة السياسية والاقتصادية لكلوة (٧٠) • وتفخر سلطنة كلوة التى عرفت باسم دولة الزنج بأزهى أيامها فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر، وقد استخدم أهلها ثروتهم فى ترقيتها والنهوض بها ، فبدلا من استعمال خشب البامبو والطين فى البناء ، أخذوا يبنون بيوتهم من الخشب ، فكانوا يقطعونه الى ألواح عريضة للجدران والأبواب ، كما بدأ عرب كلوة يبنون بيوتهم بالأحجار ، فكانوا يقطعونها الى اشكال منتظمة لتتناسب مع بعض ويلصقونها بالأسمنت (٧١) • وخير شاهد على الثروة الدافقة التى نعم بها سلاطين كلوة ، هو ادخال أساليب هندسية جديدة فى فن العمارة لم تكن موجودة من قبل ، مثل القباب والعقود • ويظهر ذلك بوضوح فى المستودع التجارى الضخم المعروف باسم Husuni Kubwa والقصر ، والمسجد الذى كان سقفه مكونا من مجموعة من القباب المتلاحقة مقامة على أربعين عامودا حجريا (٧٢) ويمكننا القول أن التوسع فى استخدام المبانى الحجرية بدأ متأخرا فى القرن الرابع عشر ، ذلك أن الرحالة ابن بطوطة – كما سنرى بعد قليل – عندما زار كلوة فى عام ١٣٣٢ ، وصف المدينة بأنها من الخشب •

وقد ترتب على رخاء كلوة الاقتصادى ونفوذها الواسع ، أن تبوأت مكانة الصدارة فى ساحل شرق أفريقية ، وازدادت الروابط بينها وبين العالم العربى • وقد وصف ابن بطوطة (٧٣) مظاهر العمران التى سادت كلوة قائلا : « ومدينة كلوا من أحسن المدن وأتقنها عمارة ، وكلها بالخشب والأمطار بها كثيرة ، وهم أهل جهاد لأنهم فى بر واحد مع كفار الزنوج والغالب عليهم الدين والصلاح ، وهم شافعية المذهب » • وتؤدى بنا العبارة الاخيرة الى الاشارة الى الشيرازيين الاصليين الذين أتوا من الساحل الشمالى للخليج العربى الى شرق أفريقية فى النصف الأخير من

---

(٧٠) Marsh & Kinsnorth, op. cit., p. 23
عبد الرحمن زكى : المرجع السابق ، ص ١٢٤ •
(٧١) ترمنجهام : الاسلام فى شرق أفريقيا ، مقدمة المعرب ، ص ١١ – ١٢ •
(٧٢) Chittic, op. cit., p. 205
(٧٣) الرحلة ، جـ ١ ص ٢٠٠ •

القرن العاشر كانوا على المذهب السنى ، ويؤكد هذا أن فارس لم تصبح شيعية تماما قبل القرن السادس عشر ، ومن المحتمل أيضا أنهم كانوا يتحدثون العربية (٧٤) • فقد شاهد ابن بطوطة عند سلطان كلوة بعض الشرفاء العرب الذين قصدوا اليه من العراق والحجاز ، وعدد منهم بعض الأسماء الكبرى ، وأشاد بترحيب السلطان لهم ، ورعايته لغيرهم من عامة العرب الذين وفدوا عليه من ديار اليمن ، وفى ذلك يقول : « وكان سلطانها (كلوة) فى عهد دخولى اليها أبو المظفر حسن ، وكان كثير الغزو الى أرض الزنوج ، يغير عليهم ويأخذ الغنائم فيخرج خمسها ، ويصرفه فى مصارفه المعنية فى كتاب الله تعالى ، ويجعل نصيب ذوى القربى فى خزانة على حدة ، فاذا جاءه الشرفاء دفعه اليهم ، وكان الشرفاء يقصدونه من العراق والحجاز وسواها ، ورأيت عنده من شرفاء الحجاز جماعة • وهذا السلطان له تواضع شديد ، ويجلس مع الفقراء ، ويأكل معهم ويعظم أهل الدين والشرف (٧٥) » •

ومما يذكر أن كلوة منذ القرن الثالث عشر غدت سوقا تجاريا واسعا لمنتجات الصين والهند ، اذ كان تجار تلك الجهات يجلبون اليها الخزف الصينى والخرز وكميات ضخمة من التوابل • ونتيجة لذلك لجأ سلاطين كلوة الى سك نقود خاصة من النحاس فى كميات ضخمة لتكون أساسا للتعامل بدلا من الودع الذى كان يستخدم من قبل بمثابة عملة لتبادل البضائع (٧٦) •

على أن ازدهار سلطنة كلوة لم يتجاوز منتصف القرن الخامس عشر ، اذ بدأ نجمها فى الأفول والاضمحلال ، اذ اضطربت أحوالها نتيجة القلاقل الداخلية والتنافس بين الحكام من جهة ، واغتصاب

---

(٧٤) Knappert, Swahili Islamic Poetry, Vol. I, p. 2

(٧٥) الرحلة ، حـ ص ٢٠٠ ،
ابراهيم العدوى : العروبة فى شرق أفريقية ، مجلة نهضة أفريقية ، العدد ١٨ ، مايو ١٩٥٩ ، السنة الثانية ، ص ١٩ •

(٧٦) Chittic, op. cit., pp. 202 — 203,
Fage, A Hist. of Africa, p. 126.

بعض الوزراء السلطة من السلطان الشرعى ، وعزلهذا واقامة ذاك تبعا لأهوائهم من جهة أخرى • كما أن ظهور مدن أخرى قوية متفوقة فى الساحل أضعف من شأن كلوة وأصابها بالتدهور ، فقد توسعت هذه المدن على حساب كلوة ، كما فعلت مدينة بات الواقعة فى شمالها ، اذ أخذت تقوى وتثرى ، وكان أن تراخت قبضة كلوة على مدنها الجنوبية وباعلان سفالة استقلالها ، فقدت كلوة أهم مصادر ازدهارها ، وهو تجارة الذهب (٧٧) • وهكذا ترتب على اضمحلال سلطنة كلوة أن فقدت وحدتها ، وسرعان ماهرع اليها العرب من مالندى ، وتولى بعضهم المناصب الهامة مثل الوزارة ، وصارت لهم الكلمة العليا فى كلوة ، فى الوقت الذى ازداد ضعف السلاطين ، وقلت ايراداتهم ، حتى أن السلطنة لم تجد ماتنفقه على اصلاح المسجد الكبير بعد ما أصابه التلف (٧٨) • ولم يلبث أن أدى تدهور كلوة الى وقوعها فريسة هينة فى شباك الغزو البرتغالى فى أواخر القرن الخامس عشر كما رأينا من قبل •

سفالة (سوفالا) :

من المعروف أن العرب لم يذهبوا على طول ساحل شرق أفريقية الى أبعد من سفالة الواقعة عند مصب نهر زمبيرى ، ولعل السبب فى ذلك يرجع الى أن المناخ جنوبى ممبسة يميل الى البرودة ، وهو مناخ يختلف عن مناخ المناطق الحارة التى أتى منها العرب ، فضلا عن قلة السكان جنوبى ممبسة ، وانعدام النشاط التجارى فى تلك الأصقاع البعيدة •

وتضفى كتابات المؤرخين والجغرافيين المسلمين فى العصور الوسطى الضوء على مدينة سفالة وشهرتها العظيمة فى الذهب ، فقد تناولها المسعودى قائلا : « بلاد سفالة هى أقاصى بلاد الزنج ، وأنها بأسفل بحر الزنج (أى فى أقاصى الجنوب منه) وتتاخم بلاد الواق واق (٧٩)

---

(٧٧) Chittic, op. cit., pp. 206 — 207

(٧٨) عبد الرحمن زكى : المرجع السابق ، ص ١٢٥ ــ ١٢٦ •

(٧٩) مروج الذهب ومعادن الجوهر ، حـ ص ١٢٥ •

ويذكر فى موضع آخر أن الزنج كانوا مستقرين فى أفريقية الشرقية حتى سفالة ، وهى آخر حدود البلاد التى كانوا ينزلونها ، وغاية مقاصد السفن القادمة من عمان وسيراف ، وينتهى بحر الزنج فى بلاد سفالة وفى بلاد الواق واق ، وهى بلاد تنتج التبر بكثرة ، ومناخها دفء ، وتربتها خصيبة (٨٠) • ويذكر البيرونى (٨١) أن المرء لا يستطيع أن يركب البحر فيما يلى سفالة الزنج ، وما من أحد أقدم على هذه المخاطرة الحمقاء وكتبت له العودة قط ليحكى ماشاهدته عيناه • وقد أطرى البيرونى (٨٢) ذهب سفالة ، فقال عنه انه « فى غاية الحمرة » • ويذكر ياقوت الحموى (٨٣) أن سفالة « آخر مدينة تعرف بأرض الزنج ، والذهب السفالى معروف عند تجار الزنج » • ووصف الادريسى (٨٤) سفالة ، وذكر أن بها مناجم للحديد مشهورة ، كما أن التبر يوجد فيها بكثرة • ويقول ابن الوردى (٨٥) عن سفالة : « وهى تجاور أرض الزنج ، وهى أرض واسعة بها جبال فيها معادن الحديد ، ولكن معادن لضرب السيوف الهندية وغيرها • ومن عجائب أرض سفالة أ نبها التبر الكثير ظاهرا زنة كل تبرة مثقالان وثلاثة وأكثر ، وهم مع ذلك لايتحلون الا بالنحاس ويفضلونه على الذهب ، وأرض سفالة متصلة بأرض الواق واق » • وقد وصف القلقشندى (٨٦) سفالة قائلا : « وأهلها مسلمون • وأكثر معايشهم الذهب والحديد ، ولباسهم جلود النمور » • أما الرحالة ابن بطوطة (٨٧) ، فعندما وصل الى كلوة ، ذكر له « بعض التجار أ ن مدينة سفالة على مسيرة نصف شهر من مدينة كلوة ، وأن بين سفالة ويونى من بلاد الليميين مسيرة شهر ، ومن يونى يؤتى بالتبر الى سفالة » •

---

(٨٠) المصدر السابق ، حـ ١ ص ٤٢٤ •

(٨١) تحقيق ماللهند من مقولة ، ص ١٠٢ •

(٨٢) الجماهير فى معرفة الجواهر ، ص ٢٣٩ •

(٨٣) معجم البلدان ، المجلد الثالث ، ص ٢٢٤ •

(٨٤) نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق •

(٨٥) خريدة العجائب ، وفريدة الغرائب ، ٥٩

(٨٦) صبح الاعشى فى صناعة الانشا ، حـ ٥ ص ٣٣٧ •

(٨٧) الرحلة ، حـ ١ ص ٢٠٠ •

وهنا يجدر أن نلاحظ أن سفالة لم تشتهر بالذهب فحسب ، بل اشتهرت أيضا بمعدن الحديد • وعلى الرغم من شهرة الأجزاء الجنوبية من سفالة بالذهب ، الا أن التجار كانوا لا يهتمون به هناك قدر اهتمامهم بالحديد ، كما أن التجار كانوا يأتون من مناطق بعيدة لشراء حديد هذه المنطقة ، من الهند مثلا ، حيث كان الهنود يصنعون من حديد سفالة أجود أنواع السيوف فى العالم (٨٨) •

وكيفما كان الأمر ، فقد اقترن اسم سفالة بالذهب ، واشتهرت بوفرته فى العصور الوسطى • وكان هذا المعدن يأتى الى سفالة من المناجم الداخلية ، فيروى المؤرخ البرتغالى باروس أن أقرب مناجم الذهب اليها يسمى مانيكا ، وهو يقع فى واد تحيط به الجبال على مسيرة حوالى خمسين فرسخا غربى سفالة ، وأبعد المناجم على مسيرة من مائة الى مائتى فرسخ من سفالة ، وتسمى البقاع التى بها الذهب ماتوكا ، ويطلق على الأشخاص الذين يحفرون لاستخراجه بوتونجا ، ولما كان الذهب الذى يجمع بسفالة تبرا ، قريبا من سطح الأرض على عمق ستة أو سبعة أقدام ، فان الأهالى كانوا يحفرون حفرا تملؤها مياه الأمطار فى فصل الشتاء ، جارفة اليها ذهب الأراضى المجاورة ، ومما يثير الدهشة أن أهالى سفالة كانوا لا يحرصون على استخراج الذهب ، لقلة حاجاتهم المعيشية ، ولذلك دأب التجار المسلمون على حثهم على استخراجه ، باعطائهم الأقمشة الفاخرة والجواهر (٨٩) • وكان الجانب الأكبر من تجارة الذهب يتم عن طريق المقايضة ، الى أن بدأ أهالى سفالة يستعيضون عنها بالعملات النحاسية التى كانت تضرب فى كلوة فى نهاية القرن الثالث عشر (٩٠)

وقد اختلف سكان سفالة الأفارقة الوثنيين عن غيرهم من السكان

---

(٨٨) Fage, A Hist. of Africa, p. 127
باسيل دافيدسون : أفريقية تكتشف من جديد ، ص ٦٩ •
(٨٩) جيان : المرجع السابق ، ص ٣٣٧ ـ ٣٣٩ ،
(٩٠) دائرة المعارف الاسلامية ، مادة « سفالة » •

الوثنيين فى الساحل ، اذ كانوا يعتقدون بوجود اله واحد يسمونة دوزيمو ، وينهون بشدة عن السرقة والفاحشة ، ولكى يثبتوا هذه التهمة ضـد رجل يكفى أن يروه جالسا على فراش تجلس عليه امرأة ، وهو بذلك يوقع المرأة التى تكون جالسة عليه فى التهمة • وكان من حق الرجل منهم أن يتزوج بأكثر من واحدة ، طالما فى قدرته اطعامهن والقيام على شئونهن ، ولكن الزوجة الأولى تظل صاحبة المنزلة الرفيعة والامر المطاع بينهن ، وتتولى بقية الزوجات خدمتها ، وأولادهاهم الذين يرثون وحدهم أموال أبيهم ونفوذه ، وكان للمرأة تقدير خاص ، حتى أن ابن الملك كان يتنحى لها عن الطريق اذا التقى بها • أما الملابس المستعملة فى سفالة فكانت مصنوعة من القطن ، ويدخل النساء والأشراف من الرجال على نسيجها الحرير أو الخيوط الذهبية ، وكان الملك لا يرتدى الثياب المستوردة من الخارج حتى لا يكون بها سحر أو أذى (٩١)

ولايخفى علينا أن الصلات بين سفالة وشبه الجزيرة العربية ترجع الى زمن بعيد موغل فى القدم ، خاصة اذا علمنا أن الذهب من المعادن التى يشتد عليها الطلب طوال العصور التاريخية • وقد كانت سفالة هى الميناء الوحيد فى الساحل الذى يقوم بتصدير الذهب ، حيث كان التجار العرب يأتون اليها للحصول على ذهبها ، مقابل مايحملونه من سلع ، ثم يعودون الى أوطانهم فى شبه الجزيرة العربية والخليج العربى • وبظهور الاسلام فى القرن السابع الميلادى ، أصبح لدى العرب دوافع أخرى – سياسـية ودينية – جعلتهـم يستقرون فى مناطق الساحل ، ومن بينها سفالة ، وبالتالى صارت تجـارة الذهب فى أيديهم • وفى هذا الصدد يذكر المؤرخ البرتغالى باروس أن هجرة الاخوة السبعة من الأحساء الى الساحل ، قد استقرت أول الأمر فى مقديشيو وبراوة ، ثم لم تلبث أن فتحت تجارة الذهب مع سفالة (٩٢) • غير أن الأمر لم يستمر على هذا النحو ، اذ يروى باروس أن رجالا من كلوة انتزعوا تجارة سفالة من مقديشيو وسيطروا عليها (٩٣) • ومنذ ذلك الوقت ازدهرت

---

(٩١) جيان : المرجع السابق ، ص ٢٣٣ – ٢٣٥ •

(٩٢) Oliver & Mathew, op. cit., Vol. I, p. 102; Chittick, op. cit., pp. 200 — 201.

(٩٣) جيان : المرجع السابق ، ص ٢٢٦ – ٢٢٧ ، Chittick, op. cit., p. 206.

تجارة الذهب بين الساحل الشرقى لأفريقية وآسيا ، ونمت ثروة المدن الساحلية عما كانت عليه من قبل ، وبلغت مستوى راقيا من الحضارة ، ويشهد بذلك مادونة الرحالة ، ولاسيما ابن بطوطة •

وهنا يصح أن نكرر أن « ذهب سفالة الذى لا ينضب » كان أحد العوامل الرئيسية التى دفعت البرتغال للقيام باستكشافاتها الجغرافية فى أواخر القرن الخامس عشر ، وقد رأينا من قبل أن سفالة كانت ثانى مدينة عربية فى الساحل ، وقعت عليها أنظار فاسكودى دى جاما ، وقد أصيب هو وبحارته بالدهشة لما وجدوه بها من حضارة راقية لم تخطر على بالهم • ونستطيع أن نقرر أنه بعد أن أنتهت الحملات البرتغالية الأولى من كشف الطريق البحرى الى الهند ، قد رفعت بعد عودتها تقارير وافية الى عما نويل الأول ملك البرتغال عن أحوال الساحل الشرقى لأفريقية ، وعلى وجه الخصوص مناجم الذهب الوفيرة فى سفالة ، وشهرتها فى هذا الصدد ، الأمر الذى استحوز على اهتمام عما نويل ، وجعله يصمم على احتكار تجارته • وتنفيذا لهذا الغرض أمر عما نويل ببناء سلسلة من الحصون فى النقاط الرئيسية على الساحل ، حيث اختيرت سفالة فى مقدمتها • وكان أن غادر بدرو دانهايا لشبونة فى ١٨ مايو سنة ١٥٠٦ ، قاصدا سفالة ، ولما وصل اليها استقبله حاكمها يوسف وسط ثلة من حراسه المسلمين ، وكان شيخا طاعنا فى السن يناهز السبعين ، كفيف البصر • وقد اضطر يوسف الى الترحيب بدانهايا بعد أن وصله خبر استيلاء دالميدا على كلوة ، كما سمح له باقامة حصن فى بلاده ، ساعد أهالى سفالة فى بنائه ، على أنه لم تكد تمر بضعة شهور على بقاء الحامية البرتغالية ، حتى ضاق الاهالى ذرعا بها ، وأغاروا صدر شيخ سفالة ، وحثوه على التحرك لمقاومة البرتغاليين فى أرضه ، غير أن البرتغاليين مالبثوا أن أكتشفوا مايدبره شيخ سفالة بسعاية حبشى يدعى أكوت، وفى القتال الذى دار بين الفريقين ، هزم أهالى سفالة ، وسقط شيخها قتيلا ، وكوفىء أكوت بجعله حاكما على سفالة (٩٤) •

وعلى أية حال ، ظلت سفالة طوال القرن السادس عشر الثغر الوحيد

---

(٩٤) Oliver & Mathew, op. cit., Vol. I, p. 134.

فى منطقة الساحل الذى يصدر الذهب الى البرتغال ، وان كانت الكميات التى حصل عليها البرتغاليون لاتتناسب مع ماكانوا يأملونه ، فالأرباح الناجمة عنه كادت تغطى نفقات استخراجه ، الأمر الذى جعل التجـــار يتجهون صوب الشمال الى كوالمانة (كويلمين) Quelimane شمالى نهر زمبيزى ، حيث يزيد بها الذهب وفرة ، وقد أثر ذلك على مدينة سفالة، فأخذ نجمها فى الافول ، وفقدت سوقها الشهيرة فى العصور الوسطى (٩٥) ٠

هـ-وزمبيق :

كانت الفكرة السائدة عند البرتغاليين قبل وصولهم الى ساحل شرق أفريقية أن الأقوام التى تعيش هناك هى أقوام بدائية ، أقرب شبها الى الأقوام التى صادفوها فى الساحل الغربى من القارة الأفريقية ٠ ولكن تلك الفكرة انقلبت رأسا على عقب على أثر وصول فاسكودى جاما الى ساحل موزمبيق فى أول مارس ١٤٩٨ م ، اذ أصابته الدهشة عندما رأى بيوت الأهالى مبنية بالخشب ، على حين كانت المساجد ودار صاحب موزمبيق مشيدة بالحجر ٠ وازدادت دهشة فاسكو عندما وقع بصره على زاكويجة Zacoeja شيخ موزمبيق – وكان تابعا وقتئذ لسلطان كلوة – اذ وجده متشحا بالثياب الحريرية ، ومتقلدا السيف والخنجر ، وفى معيته جماعة من العرب فى أفخر اثياب ، تتقدمهم الآلات الموسيقية ، ولهذا أدرك فاسكو السبب الذى جعل حاكم موزمبيق يقابل هداياه المتواضعة بازدراء ٠ وهنا نكرر القول أن أهالى موزمبيق قابلوا فاسكو وبحارته أول الأمر فى حفاوة وترحيب ، ظنا أنهم مسلمون أتوا من بلاد المغرب ، ولكن الأهالى سرعان ماأكتشفوا ان الوافدين عليهم مسيحيون ، ومن ثم اتخذوا منهم موقفا عدائيا ، وبادروا بحمل السلاح ، ولكن فاسكو أطلق عليهم نيران مدافعه ، وقتل بعضهم ، ثم أقلع بسفنه شمالا بعد أن حصل على حاجته من المؤن والماء العذب (٩٦) ٠

---

(٩٥) Oliver & Mathew, op. cit., Vol. I , p. 135
Brimingham & Marks, Southern Africa, p. 586;
دائرة المعارف الاسلامية ، مادة سفالة ٠

(٩٦) جيان : المرجع السابق ، ص ٣١٨ – ٣١٩ ،
Pearce, op. cit., pp. 56 — 57

ويذكر مؤرخ أحداث حملة فاسكو أن أهالى موزمبيق كانوا مسلمين يتحدثون العربية ، وملابسهم من الكتان والقطن ، ومحلاة بشرائط مختلفة الألوان ، تدل على مهارة الصانع ، وكانوا يشتغلون فى التجارة ، ويتعاملون مع التجار العرب . وعندما رسا الأسطول البرتغالى فى موزمبيق ، كان ثمة أربع سفن لتجار عرب راسية فى الميناء ، محملة بالذهب والفضة والتوابل ، فضلا عن كمية من اللآلىء والجواهر والياقوت ، وكانت تلك السلع باستثناء الذهب قد أتى بها التجار العرب لأهالى موزمبيق (٩٧) .

ولعل الجدير بالذكر أن موزمبيق لعبت دورا هاما ابان السيطرة البرتغالية على الساحل . ذلك أن البرتغاليين ارتكزوا فى الساحل على القسم الجنوبى منه ، واكتفوا فى الشمال على حلفائهم حكام مالندى ، الذين كانوا يمدونهم بالعون العسكرى ، ويرجع السبب فى ذلك الى أن المناخ فى الجنوب أكثر اعتدالا لبعده عن خط الاستواء ، علاوة على أنه أقرب الى مناجم الذهب الداخلية التى تصب فى موزمبيق (٩٨) . ومما زاد فى أهمية موزمبيق توسط موقعها ، وصلاحية مينائها لرسو السفن،وتحكمها الاستراتيجى فى مضيق موزمبيق ، ولهذا كله اعتمد رخاؤها على الرسوم الجمركية التى كانت تحصل عليها من السفن العديدة المارة بها أثناء ذهابها الى الهند وعودتها منها (٩٩) .

جزائر القمر (الكومور) :

تقع جزر القمر الى الشمال الغربى من جزيرة مدغشقر ، وهى تتكون من أربعة جزر : نجزيجة أو القمر الكبرى وأنجوان ومايوت وموهيلى (موحلى) ، وهى جميعا جزر بركانية صخرية وبها قليل من الماء ، ولهذا يهاجر الكثير من أهلها الى زنجبار والساحل (١٠٠) . ويقال أن أول من وفد على هذه الجزر جماعة ينتمون الى الجنس الماليزى ، ثم أتى العرب اليها ، واختلطوا بأجناس الجزيرة الماليزيين ، فتكون فيما يعرف بالجنس القومورى الحالى .

---

(٩٧) Pearce, op. cit., p. 56

(٩٨) صلاح العقاد ، جمال زكريا : زنجبار ، ص ٢٢ .

(٩٩) جيان : المرجع السابق ، ص ٢٦١ .

(١٠٠) Trimingham, Islam in East Africa, p. 37; والترجمة العربية ، ص ٨٢ .

ومن المسلم به أن العرب عرفوا جزر القمر واختلطوا بسكانها الأصليين منذ القرن التاسع الميلادى على الأقل ، بيد أنه لاتتوفر لدينا المعلومات التاريخية البحتة التى نقف من خلالها على تاريخ أول هجرة عربية وفدت على تلك الجزر ، ونتيجة لذلك نشأ خلاف بين الباحثين مايزال قائما حتى اليوم . وبداية يذكر المسعودى أن أزد عمان الاباضيين نزلوا فى جزيرة قنبلو (أنجوان)فى سنة٢٠٨هـ (٨٢٤ م).(١٠١) . أما صاحب كتاب السلوة فى أخبار كلوة فيروى أن الهجرة الشيرازية التى وصلت الساحل الشرقى لأفريقية فى سبع سفن فى القرن العاشر الميلادى قد توزعت فى عدة أماكن ، كان من بينها جزيرة هنزوان (أنجوان) ، وفى هذا يقول : « وذكروا أن جميع أهل المراكب الستة اخوة ، وصاحب المركب السابع الذى دخل هنزوان هو أبوهم » (١٠٢) . ولكن كارتى Carthy يذهب الى أن تاريخ وصول العرب الى جزر القمر غير معلوم ، وانما ثبت أن رجلا عربيا امتاز بالشجاعة جعل نفسه سلطانا على جزيرة القمز الكبرى ، كما أضاف أن أعقاب هذا الرجل هم الذين اشتبكوا فى حرب مع البرتغاليين عندما وصلوا الى مياه الساحل فى أوائل القرن السادس عشر ، الى أن جاء محمد بن عيسى من شيراز مع جماعته ، فنزل بالساحل أول الأمر ، ثم استولى على جزيرة القمر الكبرى ، وعلى جزيرتى أنجوان وموهيلى ، ولما زار جزيرة مايوت رحب به الأهالى ، وتزوج من ابنة زعيمهم (١٠٣) . أما جيفرى Gevrey فقد ذكر أن السفن العربية كانت تتردد على جزائر القمر ، ولكن العرب لم يستقروا فيها الا فى القرن الحادى عشر الميلادى ، وعندما وصل البرتغاليون لم يجدوا صعوبة فى احتلالها ، لضعف سكانها وقلة عددهم ، وكثرة السلطنات القائمة بها ، وبعد انصرافهم عنها ، جاء محمد بن عيسى مع جماعته فى عام ١٥٠٦ الى جزيرة القمر الكبرى ، ونشر الاسلام بها ، وأرسل ابنه حسن الى جزيرة أنجوان فاستولى عليها (١٠٤) .

---

(١٠١) مروج الذهب ومعادن الجواهر ، جـ١ ص ١٢٢ ــ ١٢٣ .

(١٠٢) سعيد بن على المغيرى : جهينة الأخبار فى تاريخ زنجبار ، تحقيق عبد المنعم عامر ، ص ٣٧ ــ ٣٨ .

(١٠٣) لوثروب ستودادر : حاضر العالم الاسلامى ، تعليقات الأمير شكيب أرسلان ، جـ٣ ص ١٤٢ ــ ١٤٣ .

(١٠٤) لو ثروب ستودارد : المرجع السابق ، جـ٣ ص ١٤٣ .

أمـــا دوبلانتييــه Du Plantier ، فيرى أن العرب نزلوا فى هذه الجزيرة قادمين من مسقط وغيرها فى القرن العاشر الميلادى ، وكان يصحبهم زنوج عدة ، ووجدوا فيها زنوجا وثنيين لايعرف تاريخ مجيئهم ، وقد نشأ عن هذه الأجناس جنس مختلط من السامى الخلص الى الأسود البانتو والملاجاشى (المدغشقرى) ، يعرف بالجنس القومورى (١٠٥) ٠

أما جزيرة أنجوان ، فأهلها مسلمون سنيون ، شديدو التمسك بدينهم ، ويتكلمون اللغة السواحيلية ٠ ويذكر البعض أن حسن بن محمد بن عيسى الشيرازى وصل الى الجزيرة ، فتلقاه الأهالى بالترحاب ، وأسس سلطنة فيها ، اذ تزوج من ابنة زعيم الجزيرة فى موتسامودو ، المسمى « فانى على » ، وكان له الفضل فى نشر الاسلام فى أنجوان ، وبناء المساجد فى قراها ٠ وبعد موته خلفه ابنه محمد،الذى تزوج أيضا بأمينة ابنة ماسيلاجا زعيم جزيرة مايوت والحقها بسلطنته ، ثم أضاف اليه جزيرة موهيلى ، ودان له بالطاعة سلاطين جزيرة القمر الكبرى ، وخلف محمد ابنه عيسى ، ولكن ضعف شأنه وقل نفوذه ، اذ خرجت عليه جزيرة القمر الكبرى وأصبح نفوذه عليها اسميا ، وبعد وفاته شبت المنازعات والقلاقل فى جزيرة القمر،وظل الوضع على هذا النحو الى أن أغار حكام مدغشقر عليها واجتاحوها ، وحرقوا قراها ، وفتكوا بأهلها (١٠٦) ٠

مدغشقر (ملاجاشى) :

تقع جزيرة مدغشقر فى غربى المحيط الهندى ، ولا يفصلها عن ساحل أفريقية سوى مضيق أو قناة موزمبيق ، حيث لاتزيد المسافة بين رأس سانت أندريه وبين ساحل القارة عن أربعمائة كيلو متر ، وتمتد هذه الجزيرة على شكل مستطيل ويبلغ أقصى طول لها حوالى ١٦٠٠ كيلو متر ، وأعظم اتساع لها من الشرق الى الغرب ٦٠٠ كيلو متر ، ومساحتها ٥٩٢٠٠٠ كيلو متر مربع (١٠٧) ٠ وسكانها خليط من الأفارقة والمهاجرين الأسيويين والعرب القدماء ، وأهم القبائل الكبيرة فى مدغشقر هى التانالا ، والأنتانبكارانا ، والانتسيهاناكا ، والساكالافا ،

---

(١٠٥) نفس المرجع والمكان ٠

(١٠٦) لو تروب ستودارد : المرجع السابق ، جـ٣ ص ١٤٩ ـ ١٥٠ ، حسن ابراهيم حسن : انتشار الاسلام والعروبة فى أفريقيا ، ص ١٢٨ ـ ١٢٩ ٠

(١٠٧) أحمد نجم الدين : أفريقيا جنوبى الصحراء ، ص ٢١٩ ٠

والبتسميزاركا ، والهوفا ، والأنتيموورونا ، ومن الملاحظ أنه منذ عصر ما قبل الاسلام وفدت عدة جماعات عربية على مدغشقر ، واستقرت فيها ، وفرضت نفوذها على الأهالى ، ولم يمض طويل وقت حتى امتزجت بهم ، وبعد ظهور الاسلام أدخل العرب دينهم وثقافتهم وتقاليدهم الى الجزيرة ، وأن كان تأثير النفوذ العربى لايظهر الا فى قبيلة الأنتيموورونا التى تسكن الساحل الجنوبى الشرقى من مدغشقر (١٠٨) . وليس من المعلوم لدينا التاريخ الذى اعتنقت فيه هذه القبيلة الدين الاسلامى ، فى الوقت الذى يتميز أفرادها بترديد شعار الوحدانية دائما على عادة العرب ، مثل الحمد لله وحده ، ولايبدأون بعمل الا بعد ذكر «بسم الله الرحمن الرحيم ،لا اله الا الله ، محمد رسول الله»، كما يبدأون بهسا كتاباتهم ، وهم يحافظون على أداء الصلوات ، ويمتنعون عن أكل الحيوانات النجسة ، ويختنون أطفالهم (١٠٩) . ويزعم أفراد قبيلة الأنتيموورونا أنهم يرجعون فى أصولهم الى هجرات عربية أتت من مكة المكرمة ، كما تذكر الأساطير الشائعة بالجزيرة أن اسلام هذه القبيلة يعود الى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم (١١٠) .

وقد جاء الاسلام الى جزيرة مدغشقر من عدة مداخل ، أولها المدخل الغربى الجنوبى المقابل لسفالة ، والمعتقد أن المسلمين الذين دخلوا منه كانوا من الأفارقة ومن العرب الذين اختلطوا بهم ، والمدخل الثانى هو المدخل الشمالى الشرقى ، وهو مدخل بحرى كان يدخل منه التجار المسلمون من العمانيين والقادمين من سواحل الخليج العربى ، وكانوا يأتون الى هذا الساحل بغرض الاتجار ، ولكنهم لم يتوغلوا فى داخل الجزيرة بسبب وجود القبائل البدائية والأوبئة ووعورة الأرض ، ولأنهم كانوا يبيعون ويشترون فى المراكز الساحلية ، الا أنهم حسب العادة لابد من أن يبحثوا لهم عن مراكز اقامة دائمة فى تلك المنطقة ، ومما يدل على ذلك مدينة « سالالا » التى أسسها العمانيون من أهل صلالة فى شمالى

---

(١٠٨) Ferrand, Les Musulmans A Madagascar et aux ils Comores, première partie, Les Antalmorana, pp. VIII — IX;
لو ثروب ستودارد : المرجع السابق ، جـ٣ ص ١٢٢ .
(١٠٩) لو ثروب ستودارد : المرجع السابق ، جـ٣ ص ١٢٥ .
(١١٠) Ferrand, op. cit., première partie, p. 9

الجزيرة (١١١) ، ولايزال هناك دليل آخر • وهو مدينة « ديقو » فى الطرف الشرقى من شمال الجزيرة ، وهى مدينة عربية يمنية معروفة بذلك ، وكانت اللغة العربية حية متداولة فيها الى ماقبل خمسين سنة ، حيث قل توافد العرب اليمنيين عليها ، ولكن أهلها من العرب بقى لهم لونهم المميز ولغتهم الموجودة فى الكتاتيب ، وأنسابهم المعروفة لأبنائهم • أما المدخل الثالث للاسلام الى الجزيرة فهو من ناحية الشمال الغربى ، حيث مدينة ماجنقا ، التى كانت تعتبر المدينة الاسلامية الأولى فى كل أنحاء الجزيرة ، اذ أن أهلها المسلمين أغلبهم جاءوا اليها من جزر القمر باعتبارها أقرب نقطة من مدغشقر الى تلك الجزر ويخالطهم بها قوم جاءوا من زنجبار • أما المدخل الخامس والأخير الذى دخل منه الاسلام فهو الساحل الشرقى الجزيرة ، وهو المدخل الذى وصل منه الأندونيسيون والماليزيون ممن يقطنون جنوب شرقى آسيا (١١٢) •

وثمة اشارة الى مدغشقر فيما دونه الرحالة الايطالى ماركو بولو (ت ١٣٢٤ م) فى أواخر القرن الثالث عشر ، فقد ذكر أن سكان الجزيرة مسلمون ، ولهم أربعة أشياخ يقتسمون الحكم فيما بينهم ، ويعيش السكان على التجارة ، ويبيعون عددا لاحصر له من أنياب الفيلة ، وهناك أيضا كثير من العنبر الذى تخرج من الحيتان ، فاذا قذفه المد على الساحل جمع ليباع . وتقبل الى الجزيرة كثير من السفن ، تقصدها من أرجاء مختلفة من العالم ، جالبة معها سلعا مختلفة ، من بينها الديباج المقصب والحرير ذات الرسومات المختلفة ، وكلها تدر أرباحا طائلة ، ويذكر ماركو بولو أيضا أن الرحلة بين الهند وساحل شرق أفريقية كانت تستغرق فى هذا الوقت حوالى العشرين يوما (١١٣) •

ويلاحظ أن دعوى الانتساب الى آل البيت منتشرة بين مسلمى مدغشقر فى سواحلها الجنوبية الشرقية والشمالية ، فثمة سبع قبائل تشبه عقائدها عقائد الآنتيموروونا ، ويروى بعضهم أنهم يتحدرون من ذرية رامينيا Zafi - Raminia

---

(١١١) محمد بن ناصر العبودى : مدغشقر بلاد المسلمين الضائعين، ص ٢٢ •
(١١٢) محمد بن ناصر العبودى : المرجع السابق ، ص ٢٣ ـ ٢٤ •
(١١٣) رحلات ماركو بولو ، ترجمها الى الانجليزية وليم مارسدن، وترجمها الى العربية عبد العزيز توفيق جاويد ، ص ٣٢٩ •

الذى قدم من مكة ، ويبدو أن رامينيا محرف من رحمن أو عبد الرحمن ، ويزعمون أن هذا الرجل كان صهراً للرسول صلى الله عليه وسلم ، وأنه هاجر مع أمرائه وأتباعه الى مدغشقر ، اثر المظالم التى وقعت على آل البيت (١١٤) · ومهما يكن من أمر ، فقد انتهى فران من الأبحاث التى أجراها بنفسه ، ومن الكتب العربيه المدغشقرية التى اطلع عليها ، الى أن الاسلام وفد على السواحل الشمالية والجنوبية الشرقية من مدغشقر عن طريق العرب ، كما أن العرب الذين استوطنوا الساحل الشرقى لأفريقية منذ القرن السابع الميلادى ، عرفوا مدغشقر ونشروا الاسلام بها منذ القرن الثامن (١١٥) ·

أما عن أحداث جزيرة مدغشقر فى بداية الوجود البرتغالى فى ساحل شرق أفريقية ، فقد ذكر المؤرخ البرتغالى جان دوس سانتوس أن البرتغاليين اكتشفوا الجزيرة فى عام ١٥٠٦ عندما وصل اليها القائد البحرى تريستام داكنها فى طريقه الى الهند · وكان أهالى الجزيرة المسلمون قد رفضو السماح للبرتغاليين بالتجارة فى الجزيرة خلال حكم دى منيسيس لموزمبيق ، فجهز الأخير سفينة حربية لقتال الأهالى اذا أصروا على رفضهم السماح للبرتغاليين بالتجارة فى الجزيرة ، فلما وصلت السفينة الى مدغشقر انصاع المسلمون تحت التهديد باستخدام القوة ، فرجعت السفينة الى موزمبيق بعد أن تركت على الساحل أحد الرهبان ، وحدث أن جاءت سفينة اسلامية الى ساحل مدغشقر ، فانتقم رجالها من البرتغاليين بوضع السم للراهب فمات ، مما جعل البرتغاليين يخربون مدغشقر فى العـام التالى (١٥٠٧) ، ثم عادوا الى موزمبيق (١١٦) ·

ومما يذكر أن البرتغاليين فى أوائل القرن السادس عشر كانوا يعرفون جزيرة القمر ، وهو الاسم الذى أطلقه المسلمون عليها ، بيد أنه عندما وصل اليها دييجو لوبيز دى سيكيرا فى أغسطس سنة ١٥٠٨ ، أطلق عليها اسم سان لورنت Saint Laurent ، وقد ذكرها الرحالة أندرية كورسال الذى كان فى قناة موزمبيق حوالى سنة ١٥١٤ بهذا الاسم ، فوصفها قائلا :

---

(١١٤) لو ثروب ستودارد : المرجع السابق ، جـ٣ ص ١٣٢ – ١٣٣ ·
(١١٥) لوثروب ستودارد : المرجع السابق ، جـ٣ ص ١٤١ ·
(١١٦) Ferrand, op. cit., première partie, pp. 52 — 54

« عندما وصلنا موزمبيق وجدنا سفينتين برتغاليتين صغيرتين قادمتين من جزيرة سان لورنت الواقعة فى عرض البحر قبالة موزمبيق ، وهى احدى الجزر الكبيرة التى اكتشفت فى أيامنا • ويقال أن تلك الجزيرة كثيرة المواشى ، بها كميات وافرة من الأرز ، وحاصلات أخرى يعيش عليها أهالى الجزيرة ، وبها كميات والعنبر الرمادى والزنجبيل والقرنفل•••ويوجد بها الكثير من العسل وقصب السكر والزعفران والليمون والبرتقال،وماؤها عذب،وموانيها جيدة ، وسكانها أفظاظ ، يتكلمون لغة خاصة بهم غير لغة أهالى موزمبيق،وبشرتهم ليست شديدة السواد ، ولكنهم فى جعودة شعرهم كسائر أهل تلك المنطقة ، والمسلمون وحدهم بأيديهم موانى الجزيرة ، يقايضون محاصيل البـلاد بما يأتون به من القطن والسلع الهندية • وهناك جزيرة صغيرة أخرى ، بالقرب من هذه الجزيرة تدعى أوكتاباكام ، وهى غنية بالفضة » (١١٧) •

وفى حوالى سنة ١٥١٦ م أمدنا المؤرخ البرتغالى باربوسا ببعض المعلومات عن جزيرة مدغشقر ، بقوله : « توجد جزيرة اسمها سانت لورنت على بعد ٦٠ فرسخا من رأس كورينت ، يقطنها الوثنيون ، وفيها بعض القرى التى يسكنها المسلمون • وفيها ملوك مسلمون ووثنيون ، ورجال هذه الجزيرة لونهم زيتونى ، ويتكلمون لغة خاصة ، وأرضها خصبة رائعة الجمال » • أما الرحالتان جان وراؤول بارمنتييه ، فقد أشارا فى رحلتهما الى مدغشقر سنة ١٥٢٩ الى وجود « مسلمين بيض » بها ، يتميزون عن أهالى البلاد الزنوج (١١٨) •

واخيرا نصل الى القول أن كل مدينة من مدن الساحل الشرقى لأفريقية كانت مستقلة عن الأخرى ، ولم تكن هناك وحدة سياسية شاملة تضم صفوفها ، بل كانت زعامات وقتية تفرضها احدى المدن على الأخرى • ولذلك عندما داهم البرتغاليون بمدافعهم الحديثة تلك المدن فى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى ، استغلوا المنافسات والحروب القائمة بينهما ، فوضعوا يدهم عليها الواحدة بعد الأخرى ، فى الوقت الذى لم تشهد مدن الساحل ظهور شخصية على أرضها توحد صفوفها ، واستمر الأمر على هذا النحو ، الى أن جاءت حركة المقاومة من الخارج ، من عرب عمان فى أواخر القرن السابع عشر ، الذين كان لهم الفضل الكبير فى القضاء على البرتغاليين قضاء مبرما •

---

(١١٧) Ibid., pp. 52 — 54

(١١٨) Ibid., pp. 51 — 52

المصادر والمراجع العربية

ابن الأثير : (على بن أحمد بن أبى الكرم ، ت ٦٣٠ هـ/١٢٣٨ م)
الكامل فى التاريخ • ١٢ جزءا •
(دار صادر ، بيروت)

ابراهيم رزقانة : (دكتور)
العائلة البشرية •
(القاهرة ١٩٥٠)

ابراهيم العدوى : (دكتور)
العروبة فى شرق أفريقية ، مجلة نهضة أفريقية ، العدد ١٨ ، مايو ١٩٥٩ ، السنة الثانية •

ابراهيم جمعة :
قصة الكتابة العربية ، عدد ٥٣ من سلسلة اقرأ •
(القاهرة بدون تاريخ)

أحمد أمين :
ضحى الاسلام • الجزء الثالث
(القاهرة ١٩٦٢)

أحمد دراج : (دكتور)
المماليك والفرنج فى القرن التاسع الهجرى ، الخامس عشر الميلادى •
(القاهرة ١٩٦١)

أحمد علبى :
ثورة الزنج وقائدها على بن محمد •
(بيروت ١٩٦١)

أحمد نجم الدين : (دكتور)
أفريقية جنوب الصحراء ، دراسة أقليمية .
(الاسكندرية ١٩٦٧)

الادريسى : (أبو عبد الله محمد الشريف السبتى.ت حوالى ٥٤٨ هـ/١١٥٤م)
نزهة المشتاق فى ذكر الأعصار والأقطار والبلدان والجـزر والمـداين والآفاق ، دون ذكر مكان وتاريخ الطبع ، ودون ترقيـم للصفحات .
مكتبة جامعة القاهرة تحت رقم ٩٧٨٢ .

أرنولد (ت . و) :
الدعوة الى الاسلام . ترجمه الى العربية حسن ابراهيم حسن ، عبد المجيد عابدين ، اسماعيل النحراوى .
(القاهرة ١٩٧٠)

أوليفر (رولاند) ، ليج (جون) :
تاريخ أفريقية . ترجمة د. عقيلة محمد رمضان ، مراجعة أحمـد صـوار . (القاهرة ١٩٦٤)

ابن بطوطة : (شرف الدين أبو عبدالله محمد بن عبدالله اللواتى الطنجى، ت ٧٧٩ هـ/١٣٧٧ م) رحلة ابن بطوطة . جزءان .
(القاهرة ١٩٣٤)

البيرونى : (أبو الريحان محمد بن حمد ، ت ٥٤٤ هـ/١٠٤٨ م) .
الجماهر فى معرفة الجواهر .
(حيدر آباد ١٣٥٥ هـ)

ترمنجهام (سبنسر) :
الاسلام فى شرق أفريقيا . ترجمة وتعليق محمد عاطف النواوى
راجعه فؤاد محمد شبل . (القاهرة ١٩٧٣)

جلال يحيى : (دكتور)
العرب فى شرق أفريقيا ، مجلة نهضة أفريقية ، العدد ٢٢ ، سبتمبر ١٩٥٩ .

جمال زكريا قاسم : (دكتور)
الأصول التاريخية للعلاقات العربية الأفريقية .
(القاهرة ١٩٧٥)

جنتر (جون) :
داخل افريقيا . جزءان
(القاهرة ١٩٧٥)

جوليان (شارل اندريه) :
تاريخ أفريقيا . ترجمـــة طلعت عوض أباظة ، مراجعـــة د. عبد المنعم ماجد .
(القاهرة ١٩٦٨)

جيـــــان :
وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن افريقية الشرقية . ترجمة وتلخيص يوسف كمال .
(القاهرة ١٩٢٧)

حسن ابراهيم حسن : (دكتور)
انتشار الاسلام والعروبة فيما يلى الصحراء الكبرى شرقى القـــارة الافريقية وغربها .
(القاهرة ١٩٥٧)

حسن أحمد محمود : (دكتور)
الاسلام والثقافة العربية فى أفريقية .
(القاهرة ١٩٥٨)

حورانى (جورج فضلو) :

العرب والملاحة فى المحيط الهندى • ترجمة د• يعقوب بكر ، مراجعة د•يحيى الخشاب •

(القاهرة ١٩٥٨)

دائرة المعارف الاسلامية مادة « سوفالة » •

دافيدسون (باسيل) :

افريقية القديمة تكتشف من جديد • ترجمة نبيل بدر ، محمـــود شوقى الكيال •

(القاهرة بدون تاريخ)

درويش النخيلى : (دكتور)

السفن الاسلامية على حروف المعجم •

(الاسكندرية ١٩٧٩)

دفى (جيمس) :

الاستعمار البرتغالى فى أفريقية • ترجمة الدسوقى حسنين المراكبى مراجعة د• محمد صبحى عبد الحكيم •

(القاهرة ١٩٦٣)

ديل (شارل) :

البندقية جمهورية أرستقراطية • تعريب د• أحمد عزت عبد الكريم، توفيق اسكندر •

(القاهرة ١٩٤٨)

زين الدين :

تحفة المجاهدين فى بعض أحوال البرتغاليين • مخطوطة عربية نشرها وحققها David Lopez

(لشبونة ١٨٩٨)

ابن رزيق : (حميد بن رزيق بن بخيت ، ت ١٢٧٤ هـ/١٨٥٧ م)
الفتح المبين فى سيرة السادة البوسعيديين • تحقيق عبد المنعم عامر ،
د• محمد مرسى •
(القاهرة ١٩٧٧)

سالم بن حمود النسيابى :
اسعاف الأعيان فى أنساب أهل عمان
(بيروت ١٩٦٥)

السالمى : (أبو محمد بن عبدالله بن حميد بن سلوم السالمى)
تحفة الأعيان فى سيرة أهل عمان • تأليفه سنة ١٣٣١ هـ ، الجزء الأول.
(بدون مكان ١٣٣٢ هـ)

سرحان بن سعيد الأزكوى العمانى :
تاريخ عمان المقتبس من كتاب كشف الغمة الجامع لأخبار الأمـــة ،
تحقيق عبد المجيد حسيب القيسى •
(القاهرة ١٩٧٩)

ستودارد (لوثروب) :
حاضر العالم الاسلامى • نقله الى العربية عجاج نويهض ، وعلق
عليه وأضاف اليه شكيب أرسلان • ٤ أجزاء •
(القاهرة ١٣٥٢ هـ)

سعيد بن على المغيرى :
جهينة الأخبار فى تاريخ زنجبار • تحقيق عبد المنعم عامر •
(القاهرة ١٩٧٩)
سعيد عبد الفتاح عاشور : (دكتور)
أوربا فى العصور الوسطى • الجزء الأول •
(القاهرة ١٩٧٥)
سميرة محمود حسن :
كشف مجاهل أفريقية ، مجلة نهضة أفريقية ، يوليو ١٩٥٨ •
ابن شاكر : (محمد بن شاكر بن أحمد الكتبى ، ت ١٣٦٤ م)

فـوات الوفيات ، جزءان ، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد •
(القاهرة ١٩٥١)

شريف محمد شريف : (دكتور)
تطور الفكر الجغرافى ، الجزء الأول ، العصور القديمة •
(القاهرة ١٩٦٩)

صلاح العقاد ، جمال زكريا قاسم : (دكتور)
زنجبار •
(القاهرة ١٩٥٩)

الطبرى : (أبو جعفر محمد بن جرير ، ت ٣١٠ هـ / ٩٢٢ م)
تاريخ الأمم والملوك •
(القاهرة ١٩٦٢ ـ ١٩٦٨)

عبد الرحمن زكى : (دكتور)
الاسلام والمسلمون فى شرق أفريقيا •
(القاهرة ١٩٦٥)

عبد الرحمن عبد الكريم العانى :
عمان فى العصور الاسلامية الأولى ، ودور أهلها فى المنطقة الشرقية من الخليج العربى وفى الملاحة والتجارة الاسلامية •
(بغداد ١٩٧٧)

عبد الله بن مصبح الصوافى :
السلوة فى أخبار كلوة • نقلا عن كتاب جهينة الأخبار فى تاريخ زنجبار •
(القاهرة ١٩٧٩)

عبد المجيد عابدين : (دكتور)
بين الحبشة والعرب •
(القاهرة بدون تاريخ)

عبد المنعم عامر :
عمان فى أمجادها البحرية •
(القاهرة ١٩٨٠)

عبده بدوى :
السود والحضارة العربية ·
(القاهرة ١٩٧٦)

قدرى ملعجى :
الخليج العربى ·
(بيروت ١٩٦٥)

القلقشندى : (شهاب الدين أبو العباس أحمد بن على ، ت ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م)
صبح الأعشى فى صياغة الانشا ، ١٤ جزءا ·
(القاهرة ١٩١٣ ـ ١٩١٩)

كارتن (درك) :
افريقيا ـ افريقيا ، قارة تقف على قدميها ، ترجمة أحمد فؤاد بلبع ، مراجعة حسن لطفى المنفلوطى ·
(القاهرة بدون تاريخ)

ابن كثير : (عماد الدين أبو الفدا اسماعيل بن عمر الحافظ ، ت ٧٧٤ هـ / ١٣٧٢ م)
البداية والنهاية ، ١٤ جزءا ·
(القاهرة ١٣٥٨ هـ)

ابن ماجد : (شهاب الدين أحمد بن ماجد بن عمر النجدى)
١ ـ ثلاث ازهار فى معرفة البحار · تحقيق تيودور شو موفسكى ، ترجمة وتعليق د· محمد منير مرسى ·
(القاهرة ١٩٦٩)

٢ ـ كتاب الفوايد فى أصول البحر والقواعد · الجزء الأول ·
(باريس ١٩٢١ ـ ١٩٢٣)

ماركـو بولو :
رحلات ماركو بولو · نقلها الى الانجليزية وليم مارسدن ، ونقلهـا

الى العربية عبد العزيز توفيق جاويد •
(القاهرة ١٩٧٩)

مجلة نهضة أفريقية ، سنة ١٩٥٨ ، عدد سبتمبر •
مجهول المؤلف :
قصص وأخبار جرت فى عمان •
(القاهرة ١٩٧٩)

مجهول المؤلف :
تاريخ الزنج ، مجلة نهضة أفريقية ، العدد ١٢ ، ١٣ السنة الثانية
أكتوبر ونوفمبر ١٩٥٨ م •

أبو المحاسن : (جمال الدين يوسف بن تغرى بردى ، ت ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩م)
النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، ١٤ جزءا •
(القاهرة ١٩٢٩ ـ ١٩٧١)
محمد أبو زهرة :
الدعوة الى الاسلام • تاريخها فى عهد النبى والصحابة والتابعين والعهود
المتلاحقة وما يجب الآن •
(القاهرة بدون تاريخ)

محمد بن ناصر العبودى :
مدغشقر بلاد المسلمين الضائعين •
(الرياض ١٩٨١)

محمد جلال عباس :
اللغة السواحيلية ، مجلة نهضة أفريقية ، ديسمبر ١٩٥٩ •
محمد جمال الدين سرور : (دكتور)
النفوذ الفاطمى فى جزيرة العرب •
(القاهرة ١٩٦٤)

محمد عبد الغنى سعودى : (دكتور)
أفريقية • دراسة فى شخصية الأقاليم •
(القاهرة ١٩٧٦)

محمد عبد الله عنان :
مواقف حاسمة فى تاريخ الاسلام .
(القاهرة ١٩٦٢)

محمد عوض محمد : (دكتور)
الشعوب والسلالات الافريقية .
(القاهرة ١٩٦٥)

محمد كامل حسين : (دكتور)
طائفة الاسماعيلية .
(القاهرة ١٩٥٩)

محمد محمد أمين : (دكتور)
تطور العلاقات العربية الأفريقية فى العصور الوسطى .
(القاهرة ١٩٧٧)

محمد ياسين الحموى :
الملاح العربى أحمد بن ماجد .
(دمشق ١٩٤٧)

المسعودى : (أبو الحسن على بن الحسين بن علي المسعودى ، ت ٣٤٦ هـ / ٩٥٧ م)
مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ٤ أجزاء .
(بيروت ١٩٧٣)

نفيس أحمد :
جهود المسلمين فى الجغرافيا . ترجمة فتحى عثمان ، مراجعة على أدهم
(القاهرة بدون تاريخ)

النهروالى : (قطب الدين محمد بن أحمد المكى ، ت ٩٨٨ هـ / ١٥٨٠ م)
البرق اليمانى فى الفتح العثمانى . أشرف على طبعه حمد الجاسر .
(الرياض ١٩٦٧)

النويرى الاسكندرانى : (محمد بن قاسم بن محمـد ، المتوفى بعـد سنة ٧٥٥ هـ / ١٣٧٢ م)
كتاب الالمام بالاعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية فى وقعة الاسكندرية . بدأ تحقيقه اثين كومب ، وأتم تحقيقه د . عزيز سوريال عطية . الجزء الثانى .
(حيدر آباد ١٩٦٢)

ابن الوردى : (أبو حفص عمر بن مظفر بن عمر ، ت ٧٤٩ هـ / ١٣٤٨ م)
خريدة العجائب وفريدة الغرائب .
(القاهرة ١٢٨٠ هـ)

وود (هـ . ج) :
الارتياد والكشف الجغرافى . ترجمة د. شاكر خصباك .
(بيروت بدون تاريخ)

ويدنر (دونالد) :
تاريخ أفريقيا جنوب الصحراء . ترجمة على أحمد فخرى ، د. شوقى عطا الله الجمل
(القاهرة ١٩٧٦)

ياقوت الحموى : (شهاب أبو عبـد الله الحمـوى الرومى ، ت ٦٢١ هـ / ١٢٢٣ م)
معجم البلدان . ٥ أجزاء .
(بيروت ١٩٨٤)

يحيى بن الحسين : (يحيى بن الحسين بن القاسم بن محمد بن على ، ت ١٠٨٠ هـ / ١٦٦٩ م أو سنة ١١٠٠ هـ / ١٦٨٩ على الارجح)
غاية الأمانى فى أخبار القطر اليمانى . تحقيق د. سعيد عبد الفتاح عاشور ، مراجعة د. محمد مصطفى زيادة . جزءان .
(القاهرة ١٩٦٨)

المراجـــع الأجنبيـــة

Baker (C.),

A History of Geographical Discovery and Exploration.

(London, 1972)

Beachey (R.W.) .

The Slave Trade of Eastern Africa.

(London, 1976)

Bohannan (P.) & Curtin (P.) :

Africa and Africans.

(New York, 1971)

Brimingham (D.) & Marks (S.) :

Southern Africa, in Camb. Hist. of Africa, ed. by Fage (J.D.) & Oliver (R.), Vol. 3 from C. 1050 — 1600

(London, 1977).

Chittick (Neville) :

The Coast, Madagascar and the Indian Ocean, in Camb. Hist. of Africa, Vol. 3.

(London, 1977).

Curtin (P.), Feierman (S.), Thompson (L.) & Vanisa (J.) :

African History.

(London, 1978)

Davidson (Basil) :

Africa in History.

(London, 1974)

Da Silva Rego (A.) .

Portuguse in Sixteenth Century. A study of the Royal Ordinances (Regimento).

(Johannesburg, 1959)

Davis (Stella) :

Exploring the World.

(London, 1968).

Eliot (Charles) :

The East Africa Protectorate.

(London, 1966)

Fage (J.D.) :

A History of Africa.

(London, 1979).

Ferrand (G.) :

Les Musulmanes des Iles Commores et Madagscar première partie : Les Antaimorona.

(Paris, 1891).

Fitzgerald (Walter) :

Africa. A Social, Economic, and Political Geography of its major Regions.

(London, 1955).

Ghai (Dharam P.) :

Portrait of A Minority Asians in East Africa.

(Nairobi, 1965).

Hollingsworth (L.W.) .

The Asians of East Africa.

(London,1960).

Hrbek (Ivan) :

Egypt, Nubia and Eastern Deserts, in Camb. Hist. of Africa, Vol. 3.

(London, 1977).

Ingrams (W.H.) :

Zanzibar. Its History and its People.

(Holland, 1967).

Knappert (Jan) :

Swahili Islamic Poetry. Vol I.

(Leiden, 1971).

Macmunn (G.) :

Slavery through the Ages.

(London,1938).

Miles (S.B.) :

The Countries and Tribes of the Persian Gulf.

(London, 1966).

Marsh (Z.) & Kingsnorth (G.W.) :

A History of East Africa. An introductory survey. Fourth ed.

(Cambridge, 1972).

Morgan (W.T.W.)

East Africa.

(London, 1973)

Oliver (R.) & Mathew (G.) :

History of East Africa. Vol. I

(London, 1968).

Pearce (F.B.) :

The Island Metorpolis of Eastern Africa.

(Holland, 1967).

Perham (M.) & Simmons (J.) :

African Discovery.

(London, 1957).

Prestage (Edgar) :

The Portuguese Pioneers.

(London, 1933).

Sykes (Percy)

A History of Exploration. From the Earliest Times to the Present Day.

(London, 1949).

Tadesse (Tamrat) :

The Red Sea and the Horn, in Camb. Hist. of Africa, Vol. 3.

(London, 1977).

Trimingham (J.S.) :

(I) History of Islam in East Africa.

(London, 1964).

(ii) The Influence of Islam upon Africa.

(London, 1968)

Wilson (Arnold T.) .

The Persian Gulf.

(London, 1973).

فهـــرس الموضـــوعات

رقم الايداع ٨٦/٥٥٨٢

الترقم الدولى X ــ ١٨١٢ ــ ٠٢ ــ ٩٧٧

أمر تشغيل رقم ٣٨/٨٦/٣

مطبعة القــاهرة الجديدة

٣٣ ش الجيش ــ القــاهرة

ت : ٩٠٤٢٨٦